لماذا

لا أستطيع ترك المعاصي؟

الطبعة الأولى ١٤٤٤ هـ

لماذا لا أستطيع

ترك المعاصي رغم أنني أصلي وأصوم
وأقرأ القرآن وأذكر وأتصدق؟

تأليف

محمد شومان الرملي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد، فكثيرًا ما سئلت مثل هذا السؤال، وكثيرًا ما يرد في الأذهان، ولا بد من ذلك طالما أن أسبابه موجودة ملموسة، ودواعيه متيقنة معهودة، وهو: لماذا لا زلت أعصي الله تعالى، وأخالف بعض أوامره، وأرتكب بعض نواهيه، رغم أنني أصلي وأصوم وأقرأ القرآن وأذكر وأتصدق؟!

فالجواب ـ وبالله التوفيق ـ أن يقال:

ينبغي أن تعلم أولًا: أن المعاصي النادرة القليلة لا بد منها، ولا يخلو منها أحد من بني آدم قط.

قال ابن القيم[1]: «فالذنب من موجبات البشرية، كما أن النسيان من موجباتها».

وقال شيخ الإسلام[2]: «العبد دائمًا بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر، وذنب منه يحتاج فيه إلى الاستغفار، وكلٌّ من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائمًا، فإنه لا يزال يتقلب في نعم الله وآلائه، ولا يزال محتاجًا إلى التوبة والاستغفار».

وثانيًا: أن الله سبحانه قد قدّر المعاصي على بني آدم لحكمة بالغة وحجة دامغة، عَلِمها مَنْ عَلِمها، وجَهِلها مَنْ جَهِلها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ،

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٨٨).

(٢) «طريق الهجرتين» (ص ٢٧٠).

فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ»[١].

قال القرطبي: «وحاصل هذا الحديث: أن الله تعالى سبق في علمه أنه يخلق من يعصيه فيتوب، فيغفر له، فلو قُدّر ألّا عاصي يظهر في الوجود لذهب الله تعالى بالطائعين إلى جنته، ولخلق من يعصيه فيغفر له، حتى يوجد ما سبق في علمه، ويظهر من مغفرته ما تضمنه اسمه الغفار، ففيه من الفوائد: رجاء مغفرته والطماعية في سعة رحمته».

وقال المباركفوري[٢]: «قوله: (لو لم تذنبوا)؛ أي: أيها المكلفون، أو أيها المؤمنون، (لذهب الله بكم)، الباء للتعدية، كما في قوله: (ولجاء بقوم)؛ أي: لأذهبكم وأفناكم، وأظهر قومًا آخرين من جنسكم أو من غيركم، (يذنبون)؛ أي: يمكِن وقوع الذنب منهم، ويقع بالفعل عن بعضهم، (فيستغفرون الله)؛ أي: فيتوبون أو يطلبون المغفرة مطلقًا، (فيغفر لهم)، لاقتضاء صفة الغفار والغفور ذلك، ولذا قال الله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح:١٠]، ولاستلزام هذه الصفةِ الإلهيةِ وجودَ المعصية في الأفراد البشرية، والمعنى: لو كنتم معصومين كالملائكة لذهب بكم، وجاء بمن يأتي منهم الذنوب لئلا تتعطل صفات الغفران والعفو، فلا تَجْرِئة فيه على الانهماك في الذنوب!

قال التُّوْرِبِشْتِيّ: لم يرد هذا الحديث مورد تسلية المنهمكين في الذنوب، وتوهين أمرها على النفوس، وقلة الاحتفال منهم بمواقعتها، على ما يتوهمه أهل الغِرّة بالله، فإن الأنبياء صلوات الله عليهم إنما بُعِثوا ليَردعوا الناس عن غَشَيان الذنوب واسترسال نفوسهم فيها، بل ورد مورد البيان لعَفْو الله عن المذنبين وحسن التجاوز عنهم، ليُعَظِّموا الرغبة في التوبة والاستغفار، والمعنى

---

(١) أخرجه مسلم وغيره.

(٢) «المرعاة» (٨/٢٣).

المراد من الحديث هو: إن الله تعالى كما أحب أن يحسن إلى المحسن أحب أن يتجاوز عن المسيء، وقد دل على ذلك غير واحد من أسمائه: الغفار الحليم التواب العفو، فلم يكن ليجعل العبادَ شأنًا واحدًا كالملائكة مجبولين على التنزه من الذنوب، بل يخلق فيهم من يكون بطبعه ميالًا إلى الهوى مفتتنًا ومتلبسًا بما يقتضيه، ثم يكلفه التوقي عنه، ويحذّره عن مداناته، ويعرفه التوبة بعد الابتلاء، فإن وفى فأجره على الله، وإن أخطأ الطريق فالتوبة بين يديه، فأراد النبي ﷺ: إنكم لو كنتم مجبولين على ما جُبِلَت عليه الملائكة لجاء الله بقوم يتأتى منهم الذنب، فيتجلى عليهم بتلك الصفات على مقتضى الحكمة، فإن الغفار يستدعي مغفورًا، كما أن الرزاق يستدعي مرزوقًا». اهـ.

وقد ذكر ابن القيم فصلًا مُطَوّلًا في الحِكَم الإلهية التي قدر الله فيها وقضى المعاصي على بني آدم، أنتقي منه هنا كلمات يسيرات، ولْيرجع إليه من أحب الاستزادة.

قال[1]: «منها: أنه سبحانه له الأسماء الحسنى، ولكل اسم من أسمائه أثر من الآثار في الخلق والأمر، لا بد من ترتبه عليه كترتُّب المرزوق والرزق على الرازق، وترتُّب المرحوم وأسباب الرحمة على الراحم، وترتُّب المرئيات والمسموعات على السميع والبصير، ونظائر ذلك في جميع الأسماء، فلو لم يكن في عباده من يخطئ ويذنب ليتوب عليه ويغفر له ويعفو عنه لم يظهر أثر أسمائه الغفور والعفو والحليم والتواب وما جرى مجراها، فأسماؤه الغفار التواب العفو الحليم تقتضي مغفورًا له وما يغفره له، وكذلك من يتوب عليه وأمورًا يتوب عليه من أجلها، ومن يحلم عنه ويعفو عنه، وما يكون متعلق الحلم والعفو، فإن هذه الأمور متعلقة بالغير، ومعانيها مستلزمة لمتعلقاتها.

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٢٨٧-٢٩١).

ومنها: أنه سبحانه يعرِّف عباده عزَّه في قضائه وقدَره، ونفوذ مشيئته وجريان حكمته، وأنه لا محيص للعبد عما قضاه عليه، ولا مفر له منه، بل هو في قبضة مالكه وسيده، وأنه عبده وابن عبده وابن امته، ناصيته بيده، ماض فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه.

ومنها: أنه يعرِّف العبدَ حاجته إلى حفظه له ومعونته وصيانته، وأنه كالوليد الطفل في حاجته إلى من يحفظه ويصونه، فإن لم يحفظه مولاه الحق ويصونه ويعينه فهو هالك ولا بد.

ومنها: أنه سبحانه يستجلب من عبده بذلك ما هو من أعظم أسباب السعادة له، من استعاذته واستعانته به من شر نفسه وكيد عدوه، ومن أنواع الدعاء والتضرع والابتهال والانابة والفاقة، والمحبة والرجاء والخوف، وأنواع من كمالات العبد تبلغ نحو المئة.

ومنها: تعريفه عبده أنه لا سبيل له إلى النجاة إلا بعفوه ومغفرته، وأنه رهين بحقه، فإن لم يتغمده بعفوه ومغفرته وإلا فهو من الهالكين لا محالة، فليس أحد من خلقه إلا وهو محتاج إلى عفوه ومغفرته، كما هو محتاج إلى فضله ورحمته.

ومنها: تعريفه عبدَه كرمَه سبحانه في قبول توبته ومغفرته له على ظلمه وإساءته، فهو الذي جاد عليه بأن وفقه للتوبة وألهمه إياها، ثم قبلها منه فتاب عليه أولًا وآخرًا.

ومنها: إقامة حجة عدله على عبده، ليعلم العبد أن لله عليه الحجة البالغة، فإذا أصابه ما أصابه من المكروه فلا يُقال: من أين هذا؟! ولا من أين أُتِيت؟! ولا بأي ذنب أُصِبت؟! فما أصاب العبد من مصيبة قط دقيقة ولا جليلة إلا بما كسبت يداه، وما يعفو الله عنه أكثر، وما نزل بلاء قط إلا بذنب، ولا رُفِع بلاء إلا بتوبة». اهـ.

ثم يقال: جواب هذا السؤال من شقين، الشق الأول، وهو المطابق للسؤال تمامًا: أن يقال: إن اعتقادك في هذه العبادات أنها تَقْوَى على صرف المعاصي عنك وتعينك على عدم الوقوع فيها ـ كما يتضمنه ظاهر سؤالك ـ اعتقاد حق صحيح، كما سيأتي بيانه، فلما لم تَقْوَ على ذلك لزم ولا بد أن يكون هناك خللًا فيها من جهة أدائك لها أو نقصًا جعلها تَقْصر عما يراد منها من ذلك.

والشق الثاني: أن عباداتك لو سلمت من ذلك، فإنك تحتاج إلى أشياء أخرى وأسباب ثانية تَقرنها بالعبادات لتقوى جميعًا على حفظك من المعصية!

وهذا القدر كفاية كتمهيد قبل الإجابة على السؤال.

وأما الجواب: فاعلم أن أسباب ما سألت عنه كثيرة، قد يكون عندك معظمها، وقد يكون عندك بعضها، فمنها ـ لا على سبيل الاستيعاب والإحاطة، إنما على سبيل التنبيه والإفادة، من باب ما لا يُدرك جُلُّه لا يُترك كلُّه ـ:

OOOOO

ضعف الإيمان

فضعف الإيمان والتوحيد هو أعظم أسباب الوقوع في المعاصي، وخطاب الله بترك المعصية ـ المظنون القبول والتنفيذ ـ إنما هو موجه إلى المؤمنين: يا أيها الذين آمنوا، يا أيها الذين آمنوا، افعلوا كذا، واتركوا كذا، فإن أهل الإيمان هم الذين آمنوا بالله ربًّا، وبمحمد ﷺ نبيًّا، وبالإسلام دينًا، وآمنوا بأن الله تعالى هو الإله الحق الذي تجب طاعته، بعبادته، وإتيان ما به أمر، وترك ما عنه نهى وزجر، وآمنوا بأنه المستحق للإجلال والتعظيم، والخوف والرجاء والمحبة، وحده، لما اتصف به من الأسماء الحسنى والصفات العلا، التي هي صفات الألوهية وصفات الكمال، وبقدر هذا الإيمان وقوته تكون طاعتهم لربهم وتركهم لمعصيته.

ومن الإيمان: الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالجنة والنار، فمن جعل الآخرة وما فيها من الثواب والعقاب نصب عينيه، ترك المعصية، وبحسب رجائه لما في الجنة من النعيم المقيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وخوفه من النار وعذابها الأليم، وما أعده الله للعصاة فيها من النكال والهوان، تكون قوته وهمته في ذلك.

فالمؤمنون باليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب، جملة وتفصيلًا، هؤلاء هم الذين يسارعون في طلب مغفرة الله تعالى وجنته، ويفرون من سخطه وعقوبته، فيتركون المعاصي ما ظهر منها وما بطن.

فضعف الإيمان بالله واليوم الآخر والغفلة عنه من أعظم الأسباب في الوقوع في المعاصي وعدم القدرة على تركها والتوبة منها.

والإيمان يزيد وينقص، وأعظم أسباب زيادته هو تدبر كتاب الله عز وجل، خصوصًا ما فيه من ذكر أسمائه وصفاته وعظمته تبارك وتعالى، وما فيه من ذكر نعيم الجنة وعذاب النار، وذكر الدنيا وزوالها وحقارتها، وذكر الآخرة

وبقائها وشأنها، وذكر أيام الله تعالى، بذكر عقوبات من عصى ومن أطاع من الأقوام، وتفصيل هذا يطول.

ويزيد الإيمان بالتفكر في الكون وعظمته، والنظر في ملكوت السماوات والأرض، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١]. الآيات.

وكلما قَوِي إيمان العبد بربه، قويت محبته له سبحانه، واشتد خوفه منه، وعظم رجاؤه فيه، وكل واحدة من هذه الثلاثة (المحبة والخوف والرجاء) سبب عظيم في ترك المعصية وعدم مقاربتها، ولا يخلو مؤمن من أصولها، وهي تزيد وتنقص وتقوى وتضعف بحسب قوة إيمانه وضعفه.

قال ابن القيم(١): «القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر».

قال شيخ الإسلام(٢): «اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، وأقواها المحبة، وهي مقصودة تراد لذاتها، لأنها تراد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق.

فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون

---

(١) «مدارج السالكين» (٥١٣/١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٩٥/١-٩٦).

سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده.

فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبدًا لله لا لغيره».

قلت: أما الخوف: فإن من خاف الله تعالى خوفًا صادقًا اجتنب المعاصي ولا بد، لأنه يخاف من الله عز وجل أن يعاقبه ويعذبه، يخاف من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، بل وإن الخائف يبادر بالأعمال الصالحة ويغتنم الأوقات بالطاعة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ»[1].

قال أبو سليمان الداراني: أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله عز وجل[2].

والخوف النافع المجدي هو الخوف الشديد، فهو الذي يزع عن المعصية ويكف عن التقصير.

قال أبو الحسين الوراق: الشهوة أغلب سلطان على النفس، ولا يزيلها إلا الخوف المزعج[3].

وقال ابن الجوزي[4]: «الخوف سوط يساق به المتواني».

وقال الغزالي: «الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال، والمحمود هو الاعتدال والوسط.

فأما القاصر منه: فهو الذي يجرى مجرى رقة النساء، يخطر بالبال عند

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) «شعب الإيمان» (٤٨١/٧)، وانظر «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٢٠/٧).

(٣) «ذم الهوى» (ص ٣٠).

(٤) «الطب الروحاني» (ص ٤٨).

سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع، وهو كالقضيب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألمًا مُبَرِّحًا، فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها، وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء، ولست أعني بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمتسمين بأسمائهم، فإنهم أبعد الناس عن الخوف، بل أعني العلماء بالله وبأيامه وأفعاله، وذلك مما قد عز وجوده الآن.

ولذلك قال الفضيل بن عياض إذا قيل لك: هل تخاف الله؟ فاسكت، فإنك إن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم، كذبت.

وأشار به إلى أن الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات، وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفًا.

وأما المُفْرِط: فإنه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط، وهو مذموم أيضًا لأنه يمنع من العمل».

وفي المدهش(١): «ما دامت نفسك عند التوبيخ تنكسر، وعينك وقت العتاب تدمع، ففي قلبك بعد حياة، إنما المعاصي أوجبت سكتة، فأَنْشِقْ هواك حُرّاق التخويف وقد عطس. يا من قد أبعدته الذنوب عن ديار الأنس، ابك وَطَرَ الوطن عساك تُرَد».

وفي «التبصرة»(٢): «يا من يبارز مولاه بما يكره، ويخالفه في أمره آمنًا مَكْرَه، ويُنْعِم عليه وهو ينسى شكره، والرحيل قد دنا وما له فيه فكرة، يا من قبائحه تُرفع عشيًّا وبكرة، يا قليل الزاد ما أطول السفرة! والنَّقلة قد دنت

---

(١) (ص ٣٥٧).

(٢) (١/٩٧-٩٨).

والمصير الحفرة.

متى تعمل في قلبك المواعظ؟ متى تراقب العواقب وتلاحظ؟ أما تحذر مَنْ أوعدَ وهدّد؟ أما تخاف مَنْ أنذر وشدّد؟ متى تضطرم نار الخوف في قلبك وتتوقد؟ إلى متى بين القصور والتواني تتردد؟ متى تحذر يومًا فيه الجلود تشهد؟ متى تترك ما يفنى رغبة فيما لا ينفد؟ متى تهُب بك ريح الخوف كأنك غصن يَتَأَوَّد[1]؟ البِدار البِدار إلى الفضائل، والحِذار الحِذار من الرذائل، فإنما هي أيام قلائل».

وفيها[2]: «يا مبارزًا [مولاه] بالذنوب خذ حِذرك، وتَوَقَّ عقابه بالتقى فقد أنذرك، وخَلِّ الهوى فإنه كما ترى صيّرك، قبل أن يغضب الإله ويُضَيِّق حَبْسَه، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨ و٣٠]. اهـ.

وأما الرجاء: فإن من رجا الله تعالى وثوابه وما أعده لعباده المطيعين من طيب العيش في الدنيا والسعادة والراحة، وما ادّخر لهم من النعيم المقيم في جنات النعيم، أقبل على طاعته سبحانه واجتنب معصيته.

وكل راجٍ خائف، فإنه يخاف أن يفوته ما يرجوه بسبب معصيته.

وأما المحبة: فلها شأن آخر في اجتناب أهلها لمعصية الله تعالى، فإن هؤلاء قد شغلتهم محبة الله تعالى عن كل شيء سواه، فشُغْلُهم الشاغل التقربُ إلى الله تعالى بنوافل الطاعات، والمسارعة بالخيرات، لا يكاد يكون في حقهم تطلّع إلى فضول المباحات! فضلًا عن الوقوع في المحرمات!

والمقصود أن هناك عبادات باطنة تتشعب عن الإيمان يجب أن تصاحب العبادات الظاهرة من صلاة وصوم وذكر حتى يستطيع المرء أن يترك بها المعاصي، كما ألمحنا إليه في المقدمة، فذَكَرْنا هنا أهمَّها، وهي المحبة والخوف والرجاء.

---

(١) أي: يتثنى.

(٢) (٧٤/١).

واعلم أن الإيمان درجات، وأن عبادةَ قَوِيِّ الإيمان وثمارَها ونتائجَها أعظمُ من عبادة ضعيف الإيمان، بمقادير لا يعلمها إلا الله عز وجل.

ضعف الصبر

ومن أعظم شعب الإيمان: الصبر، وضعفه من أعظم أسباب الوقوع في المعصية، فكم من عابدٍ يصلي ويصوم ويأتي بكثير من العبادات من التلاوة والذكر والصدقة وغيرها، كلما لاحت له المعصية وتحركت في نفسه الشهوة واقعها ولم يصبر عنها! وذلك لعدم قدرته على حبس نفسه عنها ومنعها منها!

وعن علقمة قال: قال عبد الله: الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان(1).

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

وقال سبحانه: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٢].

وقال رسول الله ﷺ: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»(2).

قال عبد الواحد بن زيد: من نوى الصبر على طاعة الله صبره الله عليها وقوّاه لها، ومن نوى الصبر عن معاصي الله أعانه الله على ذلك وعصمه منها(3).

وقال رسول الله ﷺ: «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ»(4).

فالصبر ـ وإن اشتمل غالبًا على المشقة ـ فإنه نور للمؤمن، يضيء له طريقه، ويسهل له مضيقه، ويحفظه من ظلمة المعاصي وهمومها، وهو رفيق الفرج، وقرين اليسر، وما أُتي مَنْ أُتي إلا من ضعف صبره!

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٥٤٤/١٠٤/٩) وغيره، وهو في «صحيح الترغيب» (٣٣٩٧).

(٢) بعض حديث، متفق عليه.

(٣) «حلية الأولياء» (١٦٣/٦).

(٤) بعض حديث، أخرجه مسلم (٢٢٣) وغيره.

لا سيما إذا تعلقت الشهوة بالنساء! وهاجمت مَنْ هُمْ في سن الشباب! فإنه عند ذلك لا يقدر على مقاومتها، إلا من كان على إيمان كأمثال الجبال الرواسي، وتوحيد عظيم، وصبر شديد، خصوصًا مع انتشار التبرج والعُرْي إلى درجة لم تكن لتخطر على البال من قبل! أعني انتشار مشاهد الزنا والفواحش على الشبكة (النت)! إضافة إلى تسهيل كل سبيل وتمهيد كل طريق إلى الوصول إلى المرأة! نسأل الله الحفظ والسلامة، لأنفسنا وذرياتنا وأحبتنا، وسائر إخواننا المسلمين.

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»[١].

لذا كان غض البصر ـ الذي تُترك بسببه هذه الشهوة، ويُصبَر عنها، ويُتغلَب عليها، وتُقطَع جذورُها من أصلها ـ هو أزكى للمؤمنين، كما قال ربنا جل وعز: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور:٣٠].

قال شيخ الإسلام[٢] «فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو أقوى تزكية للنفس».

فطريق السلامة في هذه البلية تبدأ بغض البصر، ومنع إطلاقه في الحرام، وإذا وقعت عين العبد عليه خطأ، فليصرف بصره في الحال، ولا ينتقل إلى النظرة الثانية!

وأيضًا، أن يمتنع من دخول (النت) إلا للضرورة، ولا يترك بصره يتنقل فيها هنا وهناك، ولو في الحلال المباح! فإن الفضول ينتقل بصاحبه إلى ما بعده، ثم يوقعه في الحرام.

وايضًا، وهو في غاية الأهمية، أن يمنع نفسه من خواطر السوء، ويحفظها من التجول في الشهوات، ولا يتبع فيها خطوات الشيطان ونزغاته، ووساوس

---

(١) متفق عليه.

(٢) «العبودية» (ص ٩١).

النفس الأمارة ودوافعها، وتزيينهما للمحرمات.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [النور:٢١].

ولْيَعلم أن إطلاق الخطرات هو مدخل الشيطان الأول، وثغرته التي يدخل منها إلى النفس، وهو أصل الشر كله ومبدؤه.

ومتى نجح في هذه (أعني: حفظ الخواطر) هان عليه كل ما بعدها، وهذا عامّ في باب النظر وفي كل أبواب الشر: أن يحفظ خواطر قلبه وخيالات نفسه، ويَقْصِرها على الخير.

وتكلم ابن القيم على الخطرات، فقال[١]: «وأما الخطرات: فشأنها أصعب، فإنها مبدأ الخير والشر، ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه، وقهر هواه، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب، ومن استهان بالخطرات قادته قهرًا إلى الهلَكات.

وأخس الناس همة وأوضعهم نفسًا من رضي من الحقائق بالأماني الكاذبة، واستجلبها لنفسه وتَحَلَّى بها، وهي لعمر الله رؤوس أموال المفلسين، ومتاجر البطالين، وهي قوت النفس الفارغة، التي قد قنعت من الوصل بزورة الخيال، ومن الحقائق بكواذب الآمال، وهي أضر شيء على الإنسان، ويتولد منها العجز والكسل، وتولد التفريط والحسرة والندم.

والمتمني لمّا فاتته مباشرة الحقيقة بجسمه حَوَّل صورتها في قلبه، وعانقها وضمها إليه، فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صورها فكره، وذلك لا يجدي عليه شيئًا، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن، يصور في وهمه صورة الطعام

(١) انظر «الجواب الكافي» (ص ١٨١).

والشراب، وهو لا يأكل ولا ويشرب».

وقال[١]: «دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت فكرة، فدافع الفكرة فان لم تفعل صارت شهوة، فحاربها فإن لم تفعل صارت عزيمة وهِمّة، فإن لم تدافعها صارت فعلًا، فإن لم تتداركه بضدِّه صار عادة، فيصعب عليك الانتقال عنها». اهـ

ومما يقوِّي العبد على الصبر عن المعاصي علمه بعقوباتها وشؤمها في الدنيا والآخرة، وعلمه بثواب تركها لله عز وجل.

وقد قيل: «إن ترك الذنب أهون من طلب التوبة، و ليس كل من طلب التوبة وجدها».

وقال ابن القيم[٢]: «قلة التوفيق، وفساد الرأي، وخفاء الحق، وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة الوقت، ونفرة الخلق، والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحق البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم، ولباس الذل، وإهانة العدو، وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم، وضنك المعيشة، وكسف البال، تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع عن الماء، والإحراق عن النار، وأضداد هذه تتولد عن الطاعة».

وقال[٣]: «لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلا إقامة المروءة، وصَوْن العِرض، وحفظ الجاه، وصيانة المال الذي جعله الله قوامًا لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخلق، وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقوة القلب، وطِيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفساق والفجار، وقلة الهم والغم والحزن، وعز النفس عن احتمال الذل، وصَوْن نور

---

(١) «الفوائد» (ص ٤٦).

(٢) «الفوائد» (ص ٣٢-٣٣).

(٣) «الفوائد» (ص ١٥١-١٥٢).

القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المَخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسُّر الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عَسُر على أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم، والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدعاء له، والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تُلْقَى له في قلوب الناس، وانتصارهم وحَمِيّتهم له إذا أُوذي وظُلِم، وذبهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقرب الملائكة منه، وبعد شياطين الإنس والجن منه، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، بل يفرح به، لقدومه على ربه ولقائه ل ومصيره إليه، وصِغَر الدنيا في قلبه، وكِبَر الآخرة عنده، وحرصه على الملك الكبير والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، ووَجْد حلاوة الإيمان، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتبين به، ودعائهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه وفرحه بتوبته، وهكذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبة له إلى فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه، فهذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا.

فإذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن، وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة، ينعم فيها إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحر والعرق وهو في ظل العرش، فإذا انصرفوا من بين يدي الله أُخِذ به ذات اليمين، مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو فضل عظيم».

وقال[1]: «لو علم العاصي أن لذة التوبة وفرحتها تزيد على لذة المعصية وفرحتها أضعافًا مضاعفة لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية».

---

(١) «الروح» (ص ٣٤٠).

وقال ابن الجوزي[1]: «اعلموا إخواني، ومن يقبل نصيحتي! أن للذنوب تأثيرات قبيحة، مرارتها تزيد على حلاوتها أضعافًا مضاعفة، والمُجازي بالمرصاد، لا يسبقه شيء ولا يفوته.

فوا أسفا لمضروب بالسياط ما يحس بالألم! ولمُثخن بالجراح وما عنده من نفسه خبر! ولمتقلب في عقوباتٍ ما يدري بها! وإن أعظم العقوبة أن لا يدري بالعقوبة.

فوا عجبا للمغالط نفسه! يُرضي ربه بطاعة، ثم يرضي نفسه بشهوة، ويقول: حسنة وسيئة!

ويحك! من كيسك تنفق، ومن بضاعتك تهدم، ووجه جاهك تشين! رُب جراحة قتلت، ورُب عثرة أهلكت، ورُب فارط لا يُستدرك.

ويحك! انتبه لنفسك، ما الذي تنتظر بأوبتك؟ وماذا تترقب بتوبتك؟ المشيب؟ فها هو ذا أوهن العظم! وهل بعد رحيل الأهل والأولاد والأقارب إلا اللَّحاق؟!

قَدِّر أن ما تؤمِّله من الدنيا قد حصل، فكان ماذا؟! ما هو عاجل فشَغَلك عاجلًا، ثم آخر جُرعة اللذة شَرقة! وإما أن تفارق محبوبك أو يفارقك، فيا لها جُرعة مريرة تود عندها أن لو لم تره!

آه لمحجوب العقل عن التأمل! ولمصدود عن الورود وهو يرى المنهل! أما في هذه القبور نذير؟! أما في كرور الزمان زاجر؟!

أين من ملك وبلغ المنى فيما أمل؟! نادهم في ناديهم! هيهات! صُمُّوا عن مناديهم! فلو أن ما بهم الموت! إنما هُنَيْهَةٌ ثم القبور!

العملَ حصِّل يا معدومًا بالأمس! يا متلاشي الأشلاء في الغد! بأي وجه تلقى ربك؟! أيساوي ما تناله من الهوى لفظ عتاب؟!».

وقال ابن رجب[2]: «الحذر الحذر من المعاصي! فكم سلبت من نعم؟!

---

(١) «صيد الخاطر» (ص ٨٩)، بتصرف يسير.

(٢) «لطائف المعارف» (ص ١٥٤).

وكم جلبت من نِقم؟! وكم خربت من ديار؟! وكم أخلت ديارًا من أهلها فما بقي منهم ديار؟! كم أخذت من العصاة بالثار؟! كم محت لهم من آثار؟!».

وأنصح في هذا الباب بمطالعة كتاب «الداء والدواء» (الجواب الكافي) لابن القيم، والاستفادة من كتابيّ: «الخوف من الله تعالى» و«معاتبة النفس».

قلة الحياء

ومن أعظم شعب الإيمان: الحياء من الله عز وجل، فعدم الحياء أو ضعفه هو السبب الأعظم فيما يقع فيه العبد من المعاصي، خصوصًا معاصي الفرج ومقدماتها، من خيانات الأعين وغيرها، وما تخفي الصدور مما يعلمه الله، ويُظهر العبدُ للناس خلافَه، فيفعل ذلك أو بعضه ولا يلتفت إلى اطلاع الله عليه، ولا يستحيي من نظره إليه!

والسبب الأعظم في ضعف الحياء هو ضعف الإيمان وضعف العلم برقابة الله تعالى، وأنه مطلع على أفعال العباد وأقوالهم، عليم بما تكن صدورهم وما يعلنون.

فاذا تحقق العبد بمعرفة ذلك، وامتلأ قلبه منه، عَظُم حياؤه من الله عز وجل أن يراه على ما يكره أشد من استحيائه ممن يُعَظِّم من الخلق، قال سبحانه: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء:١٠٨].

وقال سبحانه: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر:١٩].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٨١) وغيره، وحسنه الألباني.

«الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ ـ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ ـ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»[(١)].

وقال السَّفِيري[(٢)]: «إنما أفرد ﷺ هذه الخصلة من خصال الإيمان في هذا الحديث، وخصها بالذكر دون غيرها من باقي شعب الإيمان، لأن الحياء كالداعي إلى باقي الشعب، فإن صاحب الحياء يخاف فضيحة الدنيا والآخرة فيأتمر وينزجر، فلما كان الحياء كالسبب لفعل باقي الشعب خُصّ بالذكر ولم يذكر غيره معه».

وقال ابن سعدي[(٣)]: «ولعل ذكر الحياء لأنه السبب الأقوى للقيام بجميع شعب الإيمان، فإن من استحيا من الله لتواتر نعمه، وسوابغ كرمه، وتجليه عليه بأسمائه الحسنى، ـ والعبد مع هذا كثير التقصير مع هذا الرب الجليل الكبير، يظلم نفسه ويجني عليها ـ أوجب له هذا الحياء التوقِّي من الجرائم، والقيام بالواجبات والمستحبات».

وقال ابن القيم[(٤)]: «تنبيه: ثم تأمل هذا الخُلُق الذي خُصّ به الإنسان دون جميع الحيوان، وهو خُلُق الحياء، الذي هو من أفضل الأخلاق وأجلها، وأعظمها قدرًا وأكثرها نفعًا، بل هو خاصة الإنسانية، فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهم الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء، ولولا هذا الخُلُق لم يُقْرَ الضيف، ولم يُوفَ بالوعد، ولم تؤدَّ أمانة، ولم يُقْض لأحد حاجة، ولا تحرى الرجلُ الجميلَ فآثره، والقبيح فتجنبه، ولا ستر له عورة، ولا امتنع من فاحشة، وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئًا من الأمور المفترضة عليه، ولم يَرْعَ لمخلوق حقًّا، ولم يصل له رحمًا، ولا بَرّ له والدًا، فإن

---

(١) متفق علبه، وهذا لفظ مسلم.

(٢) «المجالس الوعظية» (٣/٣٦٥).

(٣) «بهجة قلوب الأبرار» (ص ١٧٩).

(٤) «مفتاح دار السعادة» (١/٧٨٨-٧٨٩- طبعة بكر أبو زيد).

الباعث على هذه الأفعال إما ديني، وهو رجاء عاقبتها الحميدة، وإما دنيوي عادي، وهو حياء فاعلها من الخَلق، فقد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها». اهـ.

عدم الإخلاص

ومن الأسباب: أن بعض عباداتك مشوبة، ليست خالصة لوجه الله تعالى، فلا تنوي فيها رضا الله والتقرب إليه، وإنما تفعلها رياءً للناس، أو تفعلها لله، ثم بعد ذلك تخبر الناس بها وتسمعهم بها: صليت، وختمت، وذكرت، وتصدقت، وفعلت وفعلت، فكأنك ما فعلتها، فصارت هباء منثورًا.

لأنها لو كانت خالصة لله لقبلها سبحانه، ولنفعتك، ولحفظك بها من المعاصي، كما قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، بفتح اللام وكسرها، من ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

وعن أبي أُمامةَ الباهلي رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: أَرأيتَ رجلًا غَزَا يَلتمِسُ الأجرَ والذِّكْرَ، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَا شَيْءَ لَهُ». فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله ﷺ: «لَا شَيْءَ لَهُ». ثم قال:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ»(١).

بل ولظهرتْ عليك آثارها من السعادة والراحة والطمأنينة، فضلًا عن صرف المعاصي، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

قال شيخ الإسلام(٢): «وإذا كان العبد مخلصًا لله اجتباه ربه فأحيا قلبه

(١) أخرجه النسائي (٦/٢٥) وغيره، وجود إسناده الحافظ في «الفتح» (٦/٢٨)، والمنذري في «الترغيب» (١/٥٥)، وأقره الألباني.

(٢) «العبودية» (ص ١٢٤).

واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله، فإن فيه طلبًا وإرادة وحبًّا مطلقًا، فيهوى ما يسنح له ويتشبث بما يهواه، كالغصن أي نسيم مر به عطفه وأماله، فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة، فيبقى أسيرًا عبدًا لمن لو اتخذه هو عبدًا له لكان ذلك عيبًا ونقصًا وذمًّا.

وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة، ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق.

وتارة يستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب والقلوب تهواها، فيتخذ إلهه هواه، ويتبع هواه بغير هدى من الله.

ومن لم يكن خالصًا لله عبدًا له، قد صار قلبه معبدًا لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، ويكون ذليلًا له خاضعًا، وإلا استعبدته الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين».

وقال[1]: «فالله يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصور والتعلق بها ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله، ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له، بحيث تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه انقهر له هواه بلا علاج». اهـ.

وقال الله عز وجل: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر:٣٩-٤٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص:٨٢-٨٣].

وعن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ بِالْخَيْفِ من

(١) «العبودية» (ص ٩٩).

مِنًى، فقال:

«نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»[(١)].

قال الزمخشري في «الفائق»: «والمعنى: أن هذه الخلال يُستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الدَّغَل[(٢)] والفساد. و(عليهن): في موضع الحال؛ أي: لا يغل كائنًا عليهن قلب مؤمن».

والإخلاص ـ كما قال ابن القيم[(٣)] ـ: «تصفية العمل من كل شَوْبٍ؛ أي: لا يُمَازِجُ عملَه ما يَشُوبُهُ من شوائب إرادات النفس، إما طلب التَّزَيُّنِ في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم ومحبتهم وقضائهم حوائجه، أو غير ذلك من العلل والشوائب، التي عَقْدُ مُتَفَرِّقاتها هو: إرادة ما سوى الله بعمله، كائنًا ما كان». اهـ.

والإخلاص ليس مطلوبًا في فعل الطاعات فقط، بل هو مطلوب في ترك المعصية أيضًا، فمن ترك المعصية لله عوضه الله عنها، وأعانه على تركها، وصبّره عنها، فالمخلص معانٌ ومحفوظ ومأجور.

قال رسوله ﷺ: «إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِلَّا بَدَّلَكَ اللَّهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ»[(٤)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٠٥٦) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) الدَّغَل: الخيانة والرِّيبة والفساد.

(٣) «مدارج السالكين» (٩٢/٢).

(٤) أخرجه أحمد (٣٦٣/٥، وفي مواضع أُخَر) وغيره، وصححه الألباني في «السلسلة الضعيفة» تحت الحديث (رقم ٥).

والأعواض والأبدال أنواع كثيرة، وأجلها قوة الإيمان وزيادته، وإذا قَوِي الإيمان وزاد زادت قوة العبد على ترك المعصية والصبر عنها.

وقال ﷺ: «قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: رَبِّ، ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ، فَقَالَ: ارْقُبُوهُ فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ»(١).

قوله تعالى: (من جرّاي)؛ أي: من أجلي؛ محبة لي، وخوفًا من عذابي، ورجاء لعطائي.

ومن ترك شهوته لغير الله، كمصلحة دنيوية يصيبها من الدنيا، لم يؤجر على تركها ولم يعَن عليها، وسرعان ما يعود إليها إذا ما تخلف سبب الترك أو زال.

وكم حار من يريد أن يترك شهوة النظر أو التدخين! وأمثالهما في ترك شهوته! واتبع كل سبيل في ذلك، فلم يهتد ولم يستطع، حتى إذا ما نوى أن يترك من أجل الله تعالى، محبة أو خوفًا أو رجاء، فتيسر له ذلك وأعانه الله سبحانه وثبته.

البدعة

ومنها: أنك لعلك تبتدع في عباداتك، فتصلي مثلًا صلوات مخترعة وتنتظر ثمارها، أو تذكر بأذكار مبتدعة: فتأتي بأوراد الشيخ فلان أو الشيخ فلان، وأحزاب الطريقة الفلانية أو الطائفة الفلانية، مما لم يثبت شرعًا، أو لم تثبت طريقة أدائه، وتترك أوراد سيد الخلق، وأخشاهم لله عز وجل، وأعلم الناس بما يُتقرب به إلى الله تعالى، وأعلمهم بكيفيته وعدده وترتيبه ووقته وزمانه، ﷺ.

فالعبادات المبتدعة من أي نوع كانت، من صلاة أو ذكر أو غير ذلك، لا تقبل ولا تنفع، وهي مردودة على صاحبها، بل هي إثم وضلال.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ مسلم وغيره.

وحتى لو كان ظاهرها الصلاح، ولو كانت خالصة لله عز وجل، إذا كانت مبتدعة مخترعة ليست من هدي النبي ﷺ فإنها لا تقبل، ولا يقال فيها: صليت صلاة كذا، وذكرت ذكر كذا، ولو ألف مرة، وفعلت عبادة كذا وكذا، ولم أستطع مع ذلك ترك المعاصي!! فإن هذا مهما كثر ومهما تنوع لا يحسب عبادات أصلًا ولا طاعات، ما دام محدَثًا مبتدَعًا، ولا ينفع صاحبه، بل هو إثم يقابل الحسنات ويمحو منها بحسب قدره وتنوعه.

إذن فكيف ستقي صاحبها من المعاصي، وتجنبه الوقوع فيها، وهي بحد ذاتها معصية؟!!!

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[١]

وفي لفظ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

قال النووي[٢]: «قال أهل العربية: الرد هنا بمعنى المردود، ومعناه: فهو باطل غير مُعْتَدٍّ به، وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كَلِمه ﷺ، فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات».

وقال ﷺ: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[٣].

قال الشاطبي[٤]: «فالمبتدع إنما محصول قوله بلسان حاله أو مقاله: إن الشريعة لم تتم، وأنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها. لأنه لو كان معتقدًا لكمالها وتمامها من كل وجه لم يبتدع، ولا استدرك عليها، وقائل هذا

(١) متفق عليه، إلا أن البخاري قال: « مَا لَيْسَ فِيهِ». واللفظ الثاني لمسلم.

(٢) «شرح مسلم» (١٦/١٢).

(٣) بعض حديث، أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) وغيره، وصححه الألباني.

(٤) «الاعتصام» (٤٩/١).

ضال عن الصراط المستقيم.

قال ابن الماجشون: سمعت مالكًا يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]. فما لم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا».

وقال الشاطبي: «المبتدع معاند للشرع ومشاقٌّ له، لأن الشارع قد عين لمطالب العبد طُرُقًا خاصة، على وجوه خاصة، وقَصَر الخلق عليها بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، وأخبر أن الخير فيها، وأن الشر في تعديها إلى غيرها، لأن الله يعلم ونحن لا نعلم، وأنه إنما أرسل الرسول ﷺ رحمة للعالمين.

فالمبتدع رادٌّ لهذا كله، فإنه يزعم أن ثَمَّ طُرُقًا أُخَر، ليس ما حصره الشارع بمحصور، ولا ما عينه بمتعيَّن، وأن الشارع يعلم ونحن أيضًا نعلم، بل ربما يفهم من استدراكه الطرق على الشارع أنه علم ما لم يعلمه الشارع!!

وهذا إن كان مقصودًا للمبتدع فهو كفر بالشريعة والشارع، وإن كان غير مقصود فهو ضلال مبين». اهـ.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ حَجَبَ التَّوْبَةَ عَنْ صَاحِبِ كُلِّ بِدْعَةٍ»(١).

والمعنى: أنه سبحانه حجبها ومنعها عنه منعًا كونيًّا، إذ إنه يعتقد أنها قربة، فكيف يتوب منها؟! ولو تاب منها شرعًا فإنه سبحانه يتوب عليه، وهو التواب الرحيم، الذي يغفر أي ذنب تاب منه صاحبه مهما كان عظيمًا(٢).

وقال ابن القيم(٣): «وأنى بالتوبة منها لمن لم يعلم أنها بدعة، أو يظنها سنة، فهو يدعو إليها، ويحض عليها؟! فلا تنكشف لهذا ذنوبه التي تجب عليه

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٢٠٢) وغيرُه. وهو في «السلسلة الصحيحة» (١٦٢٠).

(٢) وانظر كلام شيخ الإسلام على هذا في «مجموع الفتاوى» (٦٨٤/١١-٦٨٥).

(٣) «مدارج السالكين» (٣٧٤/١).

التوبة منها إلا بتضلعه من السنة، وكثرة اطلاعه عليها، ودوام البحث عنها والتفتيش عليها، ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبدًا.

فإن السنة بالذات تمحق البدعة ولا تقوم لها، وإذا طلعت شمسها في قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة، وأزالت ظلمة كل ضلالة، إذ لا سلطان للظُّلمة مع سلطان الشمس.

ولا يُري العبدَ الفرق بين السنة والبدعة، ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة، إلا المتابعة، والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله بالاستعانة والإخلاص، وصدق اللَّجْأ إلى الله، والهجرة إلى رسوله، بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته».

وقال ابن باديسَ[1]: «لا دواء للبدع الشيطانية إلا نشر السنة النبوية». اهـ.

ومن أسوأ أنواع البدع: بدع الاعتقاد، فمن اعتقد في الله أو في أسمائه أو في صفاته أو في كلامه غير عقيدة أهل السنة والجماعة[2]، اختل دينه وإيمانه، واختلت عباداته، واختلت صلاته، واختلت محبته لله عز وجل وخوفه ورجاؤه، كل ذلك بحسب ما يعتقد في الله عز وجل.

أما محبته وخوفه ورجاؤه، وهي الثلاثة التي قدمنا أنها أعظم عبادات القلب، وأكثرها منعًا للعبد من المعصية، فاختلالها بمثل قول من يقول من منحرفي العباد: لا أعبدك خوفًا من نارك، ولا رجاء لجنتك، إنما أعبدك محبة لك! فكيف سيكون اعتقاد هذا بأنبياء الله تعالى! والله تعالى يقول فيهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

---

(١) «الآثار» (٢/٢٤٨).

(٢) وهي في الكتاب والسنة وفهم الصحابة لهما، رضي الله عنهم.

وكيف سيكون اعتقاده بسيد ولد آدم ﷺ! والله تعالى يقول له: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام:١٥ والزمر:١٣].

واما اختلال صلاته، فكيف تستقيم له صلاة وهو كلما كبر فيها لا يعتقد بأن الله أكبر من كل شيء في ذاته، ويَقْصِر ذلك على كِبَر القَدْر؟!

وكذلك حال من لم يؤمن بعلو الله على خلقه إذا قال في سجوده: سبحان ربي الأعلى!

وتفصيل هذا يطول، ليس هذا موضعه.

قال شيخ الإسلام[١]: «البدع لا تزال تُخرج الإنسان من صغير إلى كبير، حتى تخرجه إلى الإلحاد والزندقة».

وقال[٢]: «البدع تكون في أولها شبرًا، ثم تكثر في الأتباع، حتى تصير أذرعًا وأميالًا وفراسخ».

وقال[٣]: «إنما يظهر من البدع أولًا ما كان أخف، وكلما ضَعُفَ مَنْ يقوم بنور النبوة قويت البدعة». اهـ.

قلت: وهذه الأمور الثلاثة التي ذكرناها (الإيمان، والإخلاص، والاتباع) هي شروط الأعمال الصالحة المقبولة عند الله عز وجل، وبقَدْر قوتها وكمالها تَشرُف العبادات وتَكمُل وتؤتي ثمارها، ويُقلع صاحبُها عن المعاصي، وهو المطلب المراد من المطروح في السؤال.

○○○○○

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٠٦/٢٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤٢٥/٨).

(٣) «التدمرية» (ص ١٩٤ - مكتبة العبيكان).

قلة الذكر

ومنها: قلة ذكرك لله تعالى، فالذكر أعظم ما يحفظ النفس، ويقيها من شرور الشيطان، بل لا يحرز العبد نفسه من الشيطان إلا بذكر الله عز وجل، فعن الحارث الأشعري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا». الحديث[1]. وفيه:

«وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا، حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ، فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ».

قال ابن القيم[2]: «وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس، و(الخناس): الذي إذا ذَكَر العبدُ اللهَ انخنس وتجمع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله تعالى التقم القلب، وألقى إليه الوساوس، التي هي مبادئ الشر كله، فما أحرز العبدُ نفسَه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل».

وقال[3]: «فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة، لكان حقيقًا بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى، وأن لا يزال لَهِجًا بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده، فإذا غَفَل وثب عليه وافترسه، وإذا ذَكَر اللهَ تعالى انخنس عدو الله تعالى وتصاغر وانقمع، حتى يكون كالوصع[4] وكالذباب، ولهذا سُمِّي (الوسواس الخناس)؛

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٦٣ و٢٨٦٤)، وصححه الألباني.

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/٢٧٠).

(٣) «الوابل الصيب» (ص ٤٦).

(٤) الوصع: بفتح الصاد وسكونها: طير أصغر من العصفور.

أي: يوسوس في الصدور، فإذا ذُكِر الله تعالى خَنَس؛ أي: كَفّ وانقبض». اهـ

والمطلوب في الذكر هو الإكثار منه، وأن يكون هو الغالب، لا الغفلة، لذا قلنا: إن من أسباب إصرارك على المعاصي رغم ما عندك من ذكر الله أن ذكرك قليل، فإن الذكر القليل مع طول الغفلة، لا يكاد يجدي نفعًا، خصوصًا مع كثرة الملهيات والمشغلات.

قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١].

وقال سبحانه بعدها في نفس السورة: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٣٥].

ثم قال سبحانه في نفس السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ❁ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ❁ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب:٤١-٤٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة:٢٠٠].

قال ابن القيم[(١)]: «ففيه الأمر بالذكر بالكثرة والشدة، لشدة حاجة العبد إليه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فأي لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله عز وجل كانت عليه لا له، وكان خسرانه فيها أعظم مما ربح في غفلته عن الله». اهـ

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فمر على جبل يقال له: جُمْدَانُ فقال:

---

(١) «الوابل الصيب» (ص ٣٩).

«سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ[1]». قالوا: وما المُفَرِّدُونَ، يا رسول الله؟ قال: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ»[2].

وعن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه، أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأخبرني بشيء أتشبث به. قال:

«لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ»[3].

وأفضل عبادة اشتملت على أنواع الذكر الثلاثة (التلاوة، والذكر من تسبيح وتحميد ونحوه، والدعاء) هي الصلاة، لذا كانت أعظم ما يحرز النفس من الشيطان، ويحميها من شره، وينهاها عن الفحشاء والمنكر، كما قال الله تبارك اسمه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

فأكثر يا عبد الله من الصلاة، فإنها أعظم عبادة تنهاك عن المعاصي، وهي أفضل ما تتقرب به إلى الله تعالى من الأعمال، فإذا لم تَنْهك فاعلم أنك: إما لم تُقِمها! وإما لم تُدِمها!

وأكثر من سائر العبادات، وانظر ـ رحمك الله ـ وطالع في كتاب ربك عز وجل، وسنة نبيك ﷺ، وكلام السلف، ما يرغبك فيها ويحثك عليها، من ذكر فضائلها وبيان أجورها في الدنيا والآخرة، وحصول الندم والحسرة على تضييعها أو التقصير فيها.

واعلم أن قلة الطاعات، وقلة الدوافع إليها، وكثرة المشغلات عنها، لا تقوى على دفع المعاصي وكثرتها، وكثرة الدوافع إليها، والمغريات بها.

وما أكثر الوسائل والمشجعات على المعصية خصوصًا في زمن غدا الإسلام فيه

---

(١) أي: المنفردون.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٦) وغيره.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧٥) وغيره، وصححه الألباني.

غريبًا، وبدا ضعيفًا! وظهر الكفر فيه وتمكن، وانتشرت الرذيلة والفواحش، وصار لها دعاة يزينونها ويحسنونها، بل وصارت حقوقًا لأصحابها، يجب على مَنْ سواهم الإذعان لهم في طلبها وأخذها، بل وسُنّتِ القوانين لحمايتهم، هم وما يشتهون وما يعبدون!!!

واعلم أن الإكثار من نوافل العبادات بعد أداء الفرائض، هو السبب الأعظم لنيل العبد محبة الله تعالى، وبالتالي توفيق الله له وتسديده، وحفظه من كل سوء، وإجابة دعوته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»(١).

قال ابن رجب(٢): «المراد بهذا الكلام: أن من اجتهد بالتقرب إلى الله بالفرائض ثم بالنوافل قربه إليه، ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى ومحبته وعظمته وخوفه ومهابته وإجلاله والأنس به والشوق إليه، حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهَدًا له بعين البصيرة.

ولا يزال هذا الذي في قلوب المحبين المقربين يقوى حتى تمتلئ قلوبهم به، فلا يبقى في قلوبهم غيره، ولا تستطيع جوارحهم أن تنبعث إلا بموافقة ما في

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) وغيره. قال شيخ الإسلام: «وهو أشرف حديث روي في صفة الأولياء». «مجموع الفتاوى» (١٢٩/١٨).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢٤٥/٢-٣٤٨).

قلوبهم، ومن كان حاله هذا قيل فيه: ما بقي في قلبه إلا الله، والمراد معرفته ومحبته وذكره». اهـ.

غفلة القلب

ومنها: عدم حضور قلبك في العبادات، من صلاة وتلاوة وذكر، فتصلي وتقرأ القرآن وتذكر وتدعو وقلبك غافل لاه، لا تعرف معنى ما تقول، ولو عرفته لم تستحضره، ولو استحضرته لم يخشع قلبك في صلاتك ولا تلاوتك ولا ذكرك لله تعالى.

فإن الصلاة ذات الخشوع، والذكر بالحضور، هو المؤثر النافع، الذي يَصلُح به القلب، وتستقيم به الأعمال، وتكفّ به النفس عن الآثام، فلا تقل: إنني أصلي وأقرأ وأذكر، ومع هذا لا أستطيع أن أترك المعصية!! فقد عرفت السبب!

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران:١٣٥].

فالذكر بحضور القلب وتعظيم الرب، هو الذي يوجب الاستغفار، ويحل عقدة الإصرار، وصاحبه هو الذي يقوى على ترك المعصية.

وقال ابن الجوزي(١): «الذكر لله له شرطان: حضور القلب في تحريره، وبذل الجهد في تكثيره، فإن أحببت أن تكون في الراسخين الأقدام في هذا المقام فحرر الذكر على الإحسان، وكَثِّرْه بقدر الإمكان».

وقال(٢): «تأملت على أكثر الناس عباداتهم، فإذا هي عادات، فأما أرباب اليقظة فعاداتهم عبادة حقيقية، فإن الغافل يقول: «سبحان الله» عادة، والمتيقظ

---

(١) «التذكرة في الوعظ» (ص ٥٩).

(٢) «صيد الخاطر» (ص ٣٩٧).

لا يزال فكره في عجائب المخلوقات أو في عظمة الخالق، فيحركه الفكر في ذلك فيقول: «سبحان الله».

ولو أن إنسانًا تفكر في رمانة، فنظر في تصفيف حبها وحفظه بالأغشية لئلا يتضاءل، وإقامة الماء على عظم العجم، وجعل الغشاء عليه يحفظه، وتصوير الفرخ في بطن البيضة، والآدمي في حشا الأم، إلى غير ذلك من المخلوقات، أزعجه هذا الفكر إلى تعظيم الخالق، فقال : «سبحان الله»، وكان هذا التسبيح ثمرة الفكر، فهذا تسبيح المتيقظين، وما تزال أفكارهم تجول فتقع عباداتهم بالتسبيحات محققة.

وكذلك يتفكرون في قبائح ذنوب قد تقدمت، فيوجب ذلك الفكرُ قلقَ القلب ونَدَمَ النفس، فيثمر ذلك أن يقول قائلهم: «أستغفر الله»، فهذا هو التسبيح والاستغفار.

فأما الغافلون فيقولون ذلك عادة، وشتان ما بين الفريقين!!».

وقال ابن سعدي[١]: «الصلاة والقراءة والذكر وغيرها من العبادات، إذا كانت بقوة حضور قلب وإيمان كامل، فلا ريب أن بينها وبين عبادة الغافل درجات تنقطع دونها أعناق المَطِيّ[٢]».

وقال ابن القيم[٣]: «أفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده، لأن ذكر القلب يورث المعرفة، ويهيج المحبة، ويثير الحياء، ويبعث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويَزَع عن التقصير في الطاعات، والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا

---

(١) «تيسير اللطيف المنان» (ص ١٨٩).

(٢) مفردها مَطِيَّة، وهو ما يُركب ويُمتطى، كالبعير والناقة. والمعنى: أنها درجات بعيدة، صعبة المنال على الغافل.

(٣) «الوابل الصيب» (ص ١١٥).

يوجب شيئًا من هذه الآثار، وإن أثمر شيئًا منها فثمرة ضعيفة».

وفي «موعظة المؤمنين»[1]: «إن قلت: ما بال ذكر الله سبحانه، مع خفته على اللسان، وقلة التعب فيه، صار أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقة فيها؟

فاعلم أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب، فأما الذكر باللسان والقلب لاهٍ فهو قليل الجدوى، بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أو في أكثر الأوقات هو المقدم على العبادات، بل به تشرف سائر العبادات، وهو غاية ثمرة العبادات العملية».

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عُشْرُ صَلَاتِهِ، تُسُعُهَا، ثُمُنُهَا، سُبُعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبُعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا»[2].

وعن أبي اليَسَرِ صاحب النبي ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال:

«مِنْكُمْ مَنْ يُصَلِّي الصَّلَاةَ كَامِلَةً، وَمِنْكُمْ مَنْ يُصَلِّي النِّصْفَ، وَالثُّلُثَ، وَالرُّبُعَ، وَالْخُمُسَ، حَتَّى بَلَغَ الْعُشْرَ»[3].

عدم صحة العبادة

ومنها: عدم صحة العبادة، فلعلك تصلي ولا تطمئن في صلاتك! فإن من صلى ولم يطمئن في صلاته، من سجود وركوع وغيرها فكأنه لم يصل!

عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ دخل المسجد، فدخل رجل فصلى، ثم جاء فسلم على رسول الله ﷺ، فرد رسول الله ﷺ السلام، قال: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ». فرجع الرجل فصلى كما كان صلى، ثم جاء إلى النبي ﷺ، فسلم

(١) (ص ١٣٧-١٣٨) بحذف يسير.

(٢) أخرجه أبو داود (٧٩٦) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦١٦) وغيرُه، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٥٣٨).

عليه، فقال رسول الله ﷺ: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ». ثم قال: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ». حتى فعل ذلك ثلاث مرات. فقال الرجل: والذي بعثك بالحق ما أُحسن غير هذا علِّمني. الحديث[1].

وعن علي بن شَيْبَانَ، وكان من الوفد، قال: خرجنا إلى رسول الله ﷺ، فبايعناه وصلينا خلفه، فلمح بمُؤْخِرِ عينه رجلًا لا يقيم صلاته – يعني: صُلْبَه -، في الركوع والسجود، فلما قضى النبي ﷺ الصلاة قال:

«يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا يُقِيمُ صُلْبَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ»[2].

ولعلك لا تحرك لسانك في القراءة والذكر في الصلاة! فإن كنت كذلك لم تصح صلاتك أيضًا، وكذلك الحكم بالنسبة للذكر خارج الصلاة، لا يحسب شيء منه ولا يثاب عليه إلا بالتلفظ به وتحريك اللسان، ولا تسمى أصلًا تلاوة ولا ذكرًا ولا قولًا ولا كلامًا دون ذلك.

قال النووي في «الأذكار»: «اعلم أن الأذكار المشروعة في الصلاة وغيرها، واجبةً كانت أو مستحبةً لا يُحسبُ شيءٌ منها ولا يُعتدّ به حتى يتلفَّظَ به بحيثُ يُسمِع نفسه إذا كان صحيح السمع لا عارض له».

وقال الجزري في «عدة الحصن»: «ولا يُعتدّ له بشيء مما رتبه الشارع على قوله حتى يتلفظ به ويُسمِع نفسه».

قلت: وهو قول الأئمة الثلاثة: أبي حنيفة والشافعي وأحمد، إنها لا تصح إلا بالتلفظ مع إسماع النفس.

وذهب مالك إلى أنها تصح إذا تلفظ بها وإن لم يُسمِع نفسه، وهو الصواب إن شاء الله تعالى، لأنه يقع عليه مسمى الكلام والقراءة والقول، وبمثل هذا قال

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٨٧١) وغيره، وهو في «صحيح الترغيب» (٥٢٦).

شيخ الإسلام[١].

وقال الشوكاني معقبًا على كلام صاحب «العدة» المتقدم: «قوله: ولا يُعتدّ له بشيء مما رتبه الشارع على قوله حتى يتلفظ به ويُسمِع نفسه. أقول: أما باعتبار التلفظ فهو معلوم من أقواله ﷺ المصرحة بأن من قال كذا كان له من الأجر كذا، فلا يحصل له ذلك الأجر إلا بما يصدق عليه معنى القول، وهو لا يكون إلا بالتلفظ باللسان، وأما اشتراط أن يُسمِع نفسه فلم يرد ما يدل عليه، لأنه يصدق القول بمجرد التلفظ، وهو تحريك اللسان وإن لم يُسمِع نفسه»[٢]. اهـ.

ولعلك لا تحسن الطهارة للصلاة، من استنجاء واستبراء، ووضوء واغتسال، ولا تميز بين غسل الحدث الأكبر وغسل النظافة، ولا تعرف أركان الطهارة!

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: رجعنا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، حتى إذا كنا بماء بالطريق تعجل قوم عند العصر، فتوضؤوا وهم عِجَال، فانتهينا إليهم وأعقابهم تلوح لم يمسها الماء، فقال رسول الله ﷺ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ، أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ»[٣].

والكلام في هذا الباب يطول، فأسباب بطلان العبادة أو فسادها أو ضياع أجرها أو فوات ثمرتها وفائدتها كثيرة، كالرياء[٤] والعُجْب وغيرها، وسيأتي بيان بعضها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ»[٥].

ooooo

---

(١) انظر «مختصر الفتاوى المصرية» (ص ٤٣).

(٢) ولكلامه بقية.

(٣) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٤) كما تقدم.

(٥) أخرجه ابن ماجه (١٦٩٠) وغيره. وهو في «صحيح الترغيب» (١٠٨٣).

ضعف الاستعانة بالله

ومنها: عدم دعاء الله تعالى والاستعانة به على ترك المعاصي أو ضعف ذلك، فإن العبد كما هو مأمور بعبادة الله وطاعته فإنه مأمور بالاستعانة به على فعل ذلك، كما قال سبحانه ـ وأُمِرنا أن نقوله في كل ركعة من الصلاة ـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

وقال سبحانه: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

وأكثر الناس في غفلة عن الاستعانة بالله ودعائه في تحقيق التقوى، ومع هذا لا يغفلون عن طلب مصالح دنياهم وأرزاقها!

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«أَتُحِبُّونَ أَنْ تَجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؟ قُولُوا: اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى شُكْرِكَ، وَذِكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[١].

وعن أبي عبد الرحمن الحُبُلِيُّ، عن الصُّنَابِحِيّ، عن معاذ بن جبل، أن رسول ﷺ أخذ بيده وقال:

«يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ». فقال: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ: لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ».

وأوصى بذلك معاذٌ الصُّنَابِحِيَّ، وأوصى به الصُّنَابِحِيُّ أبا عبد الرحمن[٢].

قال شيخ الإسلام[٣]: «والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة: وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل: وهي العلة الفاعلة،

---

(١) أخرجه أحمد (٢٩٩/٢) وغيره، وصحح إسناده الألباني في «الصحيحة» (رقم ٨٤٤).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٢٢) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) «العبودية» (ص ٩٧-٩٨).

فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يسر ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطُّمَأنينة.

وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له، فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فإنه لو أعين على حصول كل ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده، ولم يحصل له عبادة الله، فلن يحصل إلا على الألم والحسرة والعذاب، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحب لله، بحيث يكون الله هو غاية مراده ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله، لا يحب شيئًا لذاته إلا الله، ومتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة «لا إله إلا الله»، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله، وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك.

ولو سعى في هذا المطلوب ولم يكن مستعينًا بالله متوكلًا عليه مفتقرًا إليه في حصوله لم يحصل له، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود، ومن حيث هو المسؤول المستعان به المتوكل عليه، فهو إلهه الذي لا إله له غيره، وهو ربه الذي لا رب له سواه، ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين».

ooooo

الغرور

ومن أسباب ارتكاب المعاصي: الغرور، وهو انخداع الإنسان بنفسه أو بالدنيا، بسبب أوهام وظنون تقع في النفس، فتحمله بسبب جهله على فعل ما يضره من المعاصي وغيرها، وترك ما ينفعه، فينخدع بعبادات أو أقوال أو أفعال أو اعتقادات أو صفات تكون فيه، أو ينخدع بمتاع الدنيا، ومن هذه الأوهام الخادعة العُجْب[1] والثقة الزائدة بالنفس، فالعُجْب من أسباب الغرور، وليس هو الغرور، كما يُظَن، وكل مُعْجَبٍ مغرور، يوضحه:

أن من الناس من يتكل في ارتكابه المعاصي على قول: «لا إلٰه إلا الله»، ظنًّا منه أن من قالها لا يعذَّب ولا تضره معصيه، وهذا من أعظم الغرور، وأعجب الجهل بهذه الكلمة العظيمة، فإن «لا إلٰه إلا الله» تقتضي فعل الأوامر وترك النواهي، وبقدر صدق العبد وإخلاصه في قولها، تنبعث جوارحه إلى طاعة الله تعالى، وتنصرف عن معصيته.

ومن الناس من يغتر باعتقاده أنه يحسن الظن بالله عز وجل، وأنه لن يعذبه، وسيتجاوز عنه، وهو مقيم على معاصيه!! وهو سبحانه وتعالى أهل للظن الحسن، وهذا لعمر الله تعالى حق، ولكن من أحسن الظن ـ زعم ـ وهو مقيم على المعصية واهمٌ مغرور، فإن قائل هذا لو صدق لأحسن العمل، بل إن هذا منه إساءة ظن بالله تعالى، فإنه سبحانه قد توعد على عصيانه بالعقاب، وهذا يقول: لا يعذبني! ويعتبر ذلك إحسان ظن بالله تعالى!! ولو أقلع عن المعصية وتاب وأناب، ثم أحسن الظن بالله تعالى أنه سيغفر له ويتجاوز عنه لأحسن وأصاب.

---

(١) وهو استعظام المرء ما عنده من علم أو عمل، واعتقاد أن له به قدرًا عند الله عز وجل، فيركن إليه، وينسى فضل الله عليه به. هذا ما خَلَصْت إليه من كلام أهل العلم في معنى العُجْب.

قال ابن القيم[(١)]: «وكيف يكون محسنَ الظن بربه من هو شارد عنه، حالّ مرتحل في مساخطه وما يغضبه، متعرض للَعنته، قد هان حقّه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه، وأصرَّ عليه!».

وقال[(٢)]: «حسن الظن إن حمل على العمل وحثَّ عليه وساق إليه فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور.

وحسن الظن هو الرجاء، فمن كان رجاؤه حاديًا له على الطاعة، زاجرًا له عن المعصية، فهو رجاء صحيح، ومن كانت بطالته رجاءً، ورجاؤه بطالةً وتفريطًا، فهو المغرور.

ولو أن رجلًا له أرض يؤمِّل أن يعود عليه من مُغَلِّها ما ينفعه فأهملها، ولم يبذُرها، ولم يحرثها، وأحسن ظنه بأنه يأتي من مُغَلِّها ما يأتي مَن حَرَث وبَذَر وسقَى وتعاهد الأرض لعَدَّه الناس من أسفه السفهاء.

وكذلك لو حسّن ظنَّه وقوّى رجاءَه بأن يجيئه ولد من غير جماع، أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب للعلم وحِرص تامٍّ عليه، وأمثال ذلك.

فكذلك من حسّن ظنه وقوّى رجاءه في الفوز بالدرجات العلى والنعيم المقيم، من غير طاعة ولا تقرب إلى الله تعالى، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. وبالله التوفيق.

وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢١٨].

فتأمل كيف جعل رجاءهم إتيانَهم بهذه الطاعات!». اهـ.

ومن الناس من يغتر باستغفار اللسان وتوبة الكذابين، أو بأذكار يقولها وعَدَ الشرع عليها بالمغفرة أو الجنة، فيظن أنه قد حصَّل الموعود بمجرد أن يقولها

(١) «الداء والدواء» (ص ٤٥ - طبعة بكر أبو زيد).

(٢) «الداء والدواء» (ص ٨٦-٨٧).

بلسانه وهو مقيم على المعاصي!

ومن الناس من يغتر في ارتكابه المعاصي بكثرة مطالعة العلم وحفظه ومصاحبة العلماء، ويظن أن ذلك ينجيه! وذلك لشرف العلم وفضله عند الله تعالى.

وهذا من أغرب أنواع الغرور، فإن العلم النافع الذي مدحه الله عز وجل ورسوله ﷺ هو العلم المثمر لخشية الله تعالى والعمل بتقواه، أما العلم المجرد الذي لا ثمرة له فلا ينفع بحال حتى يعمل صاحبه به.

ومن الناس من يغتر بنعم الله تعالى عليه، فيظن أن الله تعالى ما أنعم عليه إلا لأنه يحبه، وأنه أهل لذلك، مع أنه مقيم على المعصية! مقصر في الطاعة! ولا يدري المسكين أن هذا نوعُ استدراجٍ من الله تعالى له، كما روى عقبة بن عامر الجُهَنِيُّ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال:

«إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يُحِبُّ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ لَهُ مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ». ثم نَزَعَ بهذه الآية: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:٤٤-٤٥][1].

وقال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ * كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾ [الفجر:١٥-١٧].

قال ابن القيم[2]: «أي: ليس كل من نعَّمتُه ووسعت عليه رزقه أكون قد أكرمته، ولا كل من ابتليته وضَيَّقت عليه رزقه أكون قد أهنته، بل أبتلي هذا بالنعمة، وأُكرم هذا بالابتلاء».

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩١٣)، و«الأوسط» (٩٢٧٢)، وغيرُه. وهو في «الصحيحة» (٤١٣).

(٢) «الداء والدواء» (ص ٧٨).

وقال سبحانه: ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون:٥٤-٥٦].

ومن الناس من يُغِرُّه في ارتكاب المعاصي عدم رؤيته عقوبة الله تعالى عليها، فيظن أنها قد غفرت أو أنها ليست بشيء، فيستحقرها وينساها ما دام لا يرى آثارها.

وهذا الصنف من المغرورين يشبه الذي قبله، فذاك غرته الدنيا ورزق الله تعالى ونعمه، وهذا غرته نعمة الأمن وتأخير العقوبة.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قال: ثم قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود:١٠٢].

قال النووي: «معنى (يملي): يمهل ويؤخر ويطيل له في المدة، وهو مشتق من المُلْوَة، وهي المدة والزمان، بضم الميم وكسرها وفتحها. ومعنى (لم يفلته): لم يطلقه ولم ينفلت منه. قال أهل اللغة: يقال: أفلته: أطلقه. وانفلت: تخلص منه». اهـ.

فالغرور الحامل على المعصية إذًا نوعان، الأول: غرور الإنسان بما عنده من العلم والعبادة وغيرها. والثاني: غروره بدنياه. والذي يدعوه إليهما نفسه وشيطانه، وأعظم سبب لغرور العبد جهله بربه سبحانه، وجهله بنفسه.

قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦-٨].

وقال عز وجل: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [آل عمران:٢٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأنعام:٧٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام:١٣٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأعراف:٥١].

ومن الناس ـ وهذا مهم ـ من يغتر وينخدع بكثرة المعاصي والشهوات وانتشارها، وكثرة الفاسقين والعصاة، وقلة المتدينين والمطيعين، فيبرر لنفسه الوقوع في المعاصي، ويحاول أن يلتمس لها الأعذار، ولو أنصف نفسه وعرف قدرها عند خالقها، وفهم ما خُلِقَتْ له، ولم يرض لها بالجهل والدون، لاختار لها التميّز والتفرد في زحمة العصاة وكثرتهم، خاصة إذا تدبر قول الله عز وجل: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف:١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦].

وقوله تعالى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ * لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٨].

وقوله ﷺ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ». قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ»[1].

وأحسن من قال:

قد هيؤوك لأمرٍ لو فَطنتَ لهُ   فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهملِ

ولله در من قال:

وإذا كانت النفوسُ كبارًا   تعبتْ في مرادها الأجسامُ

الاستهانة بالمعصية

ومنها: استقلال المعصية والاستخفاف بها واستصغارها، فيدعوه هوى قلبه وشهوة نفسه إلى مواقعتها، أو لا يكون له ذاك الهوى فيها أو تلك الرغبة، إنما هو عدم الاكتراث بكونها معصية، كنظرة أو كذبة أو غِيبة.

فإياك يا عبد الله وصغائر الذنوب، فلا تَسْتَهِينَنَّ بها، ولا تَسْتَخِفَّنَّها، فإنها مع طول المدة تصبح جبالًا، وتصير كُثَارًا، وتتعود عليها، وتأنس بها، فعند ذلك لا تستطيع تركها، ولا التوبة منها، بل وتنساها، وتنسى أنها عند الله مكتوبة مسطورة، أحصاه الله ونسوه.

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة:٦].

وقال تعالى: ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر:٥٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

(١) أخرجه أبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن» (٢٨٨) وغيره، وهو في «السلسلة الصحيحة» (١٢٧٣).

وقال سبحانه: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:٧ -٨].

وقال سبحانه: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبَ، فَإِنَّ مَثَلَ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بِبَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ وَذَا بِعُودٍ، حَتَّى جَمَعُوا مَا أَنْضَجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ:

«يَا عَائِشَةُ إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ(٣) قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا، حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٤]»(٤).

ولابن المعتز:

خَلِّ الذنوبَ صغيرَها	وكبيرَها فهْو التقى
واصنع كماشٍ فوق أر	ض الشوك يحذر ما يرى
لا تَحقرنّ صغيرةً	إن الجبال من الحصى

(١) أخرجه الطبراني في «معاجمه» الثلاثة (٩٠٤ و٧٣٢٣ و٥٨٧٢) وغيره. وهو في «الصحيحة» (٣٨٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٣) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) سُقل لغة في صُقل؛ أي: جُلِي ولُمِّع وهُذِّب وأُزيل صدؤه، كما يصقل الإناء والسيف، فيصير أملس مصقولًا.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤) وغيره، وحسنه الألباني.

ولغيره:

لا تحقـرنّ مـن الذنـوب صـغيرًا إن الصـغير غـدًا يعـود كبـيرًا
إن الصـغير وإن تقـادم عهـدهُ عنـد الإله مسـطرٌ تسـطيرًا
فازجر هواك عن البطالـة لا تكـنْ صَعْبَ القِيـاد وشَمِّرَنْ تشـميرًا

ومنها: أن يقع في معاصي عظيمة قد تأتي على معظم أعماله الصالحة فتمحقها، أو على كثير من حسناته فتمحوها، وهو لا يتوقع حصول ذلك بسبب تلك المعاصي، وإن كان يعلم بقبحها!

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله، إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار، وتفعل، وتصَّدق، وتؤذي جيرانها بلسانها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَا خَيْرَ فِيهَا، هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ».

قالوا: وفلانة تصلي المكتوبة، وَتَصَّدَّقُ بأثوار(١)، ولا تؤذي أحدًا؟ فقال رسول الله ﷺ: «هِيَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي ﷺ بحائط من حيطان المدينة، أو مكة، فسمع صوتَ إنسانين يعذبان في قبورهما، فقال النبي ﷺ: «يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ». ثم قال: «بَلَى، كَانَ أَحَدُهُمَا لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكَانَ الآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»(٣).

قال النووي: «قوله ﷺ: (وما يعذبان في كبير)، وقد ذكر العلماء فيه تأويلين: أحدهما: أنه ليس بكبير في زعمهما. والثاني: أنه ليس بكبير تركه عليهما».

وقال الله سبحانه في حادثة الإفك: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ

---

(١) (أثوار): جمع ثَوْر، والثور: قطعة من الأَقِطِ. وهو ما نسميه: الجَمِيد.

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (رقم ١١٩) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) متفق عليه.

﴿لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١٥].

قال ابن كثير: «﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾؛ أي: تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين، وتحسبون ذلك يسيرًا سهلًا!».

ومنها: أنك لعلك ترتكب معاصي وأنت لا تدري أنها معاصٍ! وبعضها صغائر، وبعضها من كبائر الذنوب! كسماع الغناء والموسيقى، والنظر إلى الصور المحرمة! والعشق لما لا يَحِل بحال! وهي التي تمنعك من الانتفاع التام بعباداتك، من صلاة وذكر وغيرها، وهذا لا علاج له إلا العلم ومعرفة الحلال والحرام، كما سيأتي.

○○○○○

الغفلة عن ذكر الموت

ومنها: الغفلة عن ذكر الموت، فإن ذكره ينغص الشهوات، ويقطع اللذات، ويمنع من ارتكاب المعاصي والسيئات، ويوجب التوبة من الزلات.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ، فَمَا ذَكَرَهُ عَبْدٌ قَطُّ وَهُوَ فِي ضِيقٍ إِلَّا وَسَّعَهُ عَلَيْهِ، وَلَا ذَكَرَهُ وَهُوَ فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهُ عَلَيْهِ»[(١)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اذْكُرِ الْمَوْتَ فِي صَلاتِكَ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ، وَصَلِّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةً غَيْرَهَا، وَإِيَّاكَ وَكُلَّ أَمْرٍ يُعْتَذَرُ مِنْهُ»[(٢)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فجاءه رجل من الأنصار، فسلم على النبي ﷺ، ثم قال: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ قال:

«أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا». قال: فأي المؤمنين أكْيَس؟ قال: «أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ»[(٣)].

قال المناوي[(٤)]: «إذا أكثر الإنسان ذكر الموت بقلبه انقشعت الظلمة، واستنار الصدر بنور اليقين، فأبصر الموت، وهو عاقبة الأمر، فرآه قاطعًا لكل لذة، حائلًا بينه وبين كل أمنية، ورآها أنفاسًا معدودة، وأوقاتًا محدودة، لا يدري متى ينفد العدد، وينقضي المدد، فركبته أهوال الخطر، وأذهلته العبر، وتردد بين

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٥٦٢ - موارد) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (١٧٥٥ - مختصره). وهو في «الصحيحة» (٢٨٣٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٩) وغيره، وهو حديث حسن بطرقه، كما في «الصحيحة» (٣٧٣/٣).

(٤) «فيض القدير» (٨٦/٢).

الخوف والرجاء، فانكسر قلبه، وخمدت نفسه، وذبلت نار شهوته، فزهد في أمنيته، ورضي بأدني عيشته». اهـ.

طول الأمل

ومنها: طول الأمل، وهو أن يُمَنِّي الإنسان نفسه بطول البقاء في الدنيا ويستمر على ذلك، فينكب عليها، ويعرض عن الآخرة، هذا هو الأمل المذموم، الذي يصاحبه الانشغال عن الطاعة، والحرص على شهوات الدنيا، وترك الاستعداد للموت.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ * رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ * ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر:١-٣].

وقال سبحانه وتعالى في اليهود: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:
«لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الدُّنْيَا، وَطُولِ الْأَمَلِ»(١).

قال ابن القيم(٢): «طول الأمل ينسي الآخرة، ويصد عن الاستعداد لها».

فليفكر العاصي في قرب الأجل، وقصر الأمل، والقدوم على الله تعالى بغير عمل، وليبادر ما دام في العمر فسحة، وفي الحياة بقية، وليتدبر قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٥].

---

(١) متفق عليه، وهذا لفظ البخاري.

(٢) «الفوائد» (ص ٩٩).

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [فاطر:٥].

وفي «مختصر منهاج القاصدين»(١): «اعلم: أن السبب في طول الأمل شيئان: أحدهما: حب الدنيا، والثاني: الجهل.

أما حب الدنيا: فإن الإنسان إذا أَنِس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثَقُل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كَرِهَ شيئًا دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأماني الباطلة، فيُمَنِّي نفسه أبدًا بما يوافق مراده من البقاء في الدنيا، وما يحتاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء، وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفًا على هذا الفكر، فيلهو عن ذكر الموت، ولا يُقَدِّر قربَه، فإن خطر له الموت في بعض الأحوال والحاجة إلى الاستعداد له سوَّف بذلك ووعد نفسه، وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبَر ثم تتوب. وإذا كبِر قال: إلى أن يصير شيخًا. وإن صار شيخًا قال: إلى أن يفرغ من بناء هذه الدار، وعِمارة هذه الضيعة، أو يرجع من هذه السفرة.

فلا يزال يسوِّف ويؤخر، ولا يحرص في إتمام شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال، وهكذا على التدريج يؤخر يومًا بعد يوم، ويشتغل بشغل بعد شغل، إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته.

وأصل هذه الأماني كلها حب الدنيا والأنس بها، والغفلة عن قول النبي ﷺ: «أَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ»(٢).

السبب الثاني: الجهل، وهو أن الإنسان يعوِّل على شبابه، ويستبعد قرب الموت مع الشباب، أوَليس يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عُدُّوا كانوا أقل

---

(١) (ص ٣٨٥-٣٨٦)، بتصرف يسير.

(٢) بعض حديث، أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٤٢٩ و٥٠٠٢) وغيرُه. وحسنه الألباني. وقد تقدم (ص ٢١٧).

من العُشر؟! وإنما قلُّوا لأن الموت في الشباب أكثر، وإلى أن يموت شيخ قد يموت ألف صبي وشاب، وقد يغتر بصحته، ولا يدري أن الموت يأتي فجأة، وإن استبعد ذلك، فإن المرض يأتي فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدًا، ولو تفكر وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص، من صيف وشتاء وربيع وخريف وليل ونهار، ولا هو مقيَّد بسن مخصوص، من شاب وشيخ أو كهل أو غيره، لَعَظُمَ ذلك عنده واستعد للموت».

وقال ابن حجر[1]: «يتولد من طول الأمل الكسل عن الطاعة، والتسويف بالتوبة، والرغبة في الدنيا، والنسيان للآخرة، والقسوة في القلب، لأن رقته وصفاءه إنما يقع بتذكير الموت والقبر والثواب والعقاب وأهوال القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الحديد:١٦]. وقيل: من قَصُر أمله قَلّ همه ورضي بالقليل».

التسويف

ومنها: التسويف، وهو متولد من طول الأمل ـ كما تقدم ـ، والتسويف هو: المماطلة والتأجيل والتأخير لفعل الخيرات، فيقول: سوف أتوب غدًا أو بعد ذلك، وسوف أفعل الطاعة كذا فيما بعد، وسوف أترك المعصية كذا بعدما يحصل كذا، وعندما أَخْلُص إلى كذا، وهكذا، فيعجّل السيئات ويسوّف الخيرات، ويبقى هكذا، بحسب طول أمله وغفلته وجهله، وقد يفجؤه الموت وهو على هذه الحال، نسأل الله السلامة.

قال الله عز وجل سبحانه: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ [الشورى:٤٧].

قال ابن سعدي: «يأمر تعالى عباده بالاستجابة له، بامتثال ما أمر به،

(١) «فتح الباري» (١١/٢٣٧).

واجتناب ما نهى عنه، وبالمبادرة بذلك وعدم التسويف، من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي إذا جاء لا يمكن رده، واستدراك الفائت، وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه، فيفوت ربَّه ويهرب منه، بل قد أحاطت الملائكة بالخليقة من خلفهم، وليس للعبد في ذلك اليوم نكير لِـما اقترفه وأجرمه، بل لو أنكر لشهدت عليه جوارحه».

قال: «وهذه الآية ونحوها فيها ذم الأمل، والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يَعرض للعبد، فإن للتأخير آفات».

وقال[1]: «ليس للعبد أنفع من قِصَر الأمل، ولا أضر من التسويف وطول الأمل». اهـ.

وقال ابن الجوزي[2]: «الواجب على العاقل أخذ العدة لرحيله، فإنه لا يعلم متى يفجؤه أمر ربه، ولا يدري متى يُستدعى، وإني رأيت خلقًا كثيرًا غرهم الشباب، ونسوا فقد الأقران، وألهاهم طول الأمل، وربما قال العالم المحض لنفسه: أشتغل بالعلم اليوم، ثم أعمل به غدًا! فيتساهل في الزهد بحجة الراحة، ويؤخر الأُهبة لتحقيق التوبة، ولا يتحاشى من غِيبة أو سماعها، ومن كَسْب شبهة يأمل أن يمحوها بالورع، وينسى أن الموت قد يبغت، فالعاقل من أعطى كل لحظة حقها من الواجب عليه، فإنْ بغته الموت رُئي مستعدًّا، وإن نال الأمل ازداد خيرًا».

ومن مواعظ ابن الجوزي[3]: «إخواني، آنَ الرحيلُ وما عندكم خبر، إلى كم تُوعَظون ولا تَتَّعظون، وتُوقَظون ولا تتيقظون، وتُتْعِبون الناصح ولا تَقْبَلون؟! ويكفي

(١) «طريق الهجرتين» (ص ٤٩٠ - طبعة قطر).

(٢) «صيد الخاطر» (ص ٢٨-٢٩).

(٣) «التبصرة» (٢/٨٣).

في البيان رؤية الأقران يرحلون، ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الطور:١٥].

أَكُلِّفْتُم ما لا تُطيقون؟! أَكُلِّمْتُم بما لا تَفهمون؟! ما لكم عن مآلكم معرضون؟! ما هذا الفتور وأنتم سالمون؟! ما هذا الرقاد وأنتم منتبهون؟!

كم مؤمل إدراك شهر ما أدركه؟! فاجأه الموت بغتة فأهلكه، كم ناظر إلى يوم صومه بعين الأمل، طمسها بالممات كف الأجل! كم طامع أن يلقاه بين أترابه[١]، ألقاه الموت في عُقْرِ ترابه!».

ومنها[٢]: «إخواني، إلى متى هذه الغفلة وقد علمتم المصير؟! إلى متى هذه الآمال والعمر قصير؟! إلى متى هذا الحجاب والأمر خطير؟! إلى متى هذا التسويف فقد خذلكم التقصير؟! إلى متى هذا العمى عن التحقيق والناقد بصير؟! إلى متى هذا التواني وقد قرب الرحيل إلى الحفير؟! إلى متى هذه القسوة ولا مُعين ولا نصير؟!

كأنك بالموت قد أزعجك وهالك، فنازلك وأنزلك عن عِزِّك وأزالك، وألحقك بأمك وأبيك لا أبا لك، وقد بقي القليل فاعقل حالك، واصْحُ من سكرتك وأطع عُذّالك، واعتذر إلى مولاك وقد أقالك، واسمع نصح شَفِيقٍ يَرْثي لك.

خذ الوقت واعلم بأن اللبيـ ... ـب يأخذ من يومه للغدِ
فما ينفع المرءَ بعد المنو ... نِ قولُ النوادب لا تُبْعِدِ

إخواني، أهل القبور قد أُسِرُوا، وأكثر القوم في تجارتهم قد خَسروا، مُرُّوا على القوم واعتبروا، وتفكروا في أحوالهم وانتظروا، يتمنون العَوْدَ وهيهات! ويسألون البِدار وقد فات.

فيا مُطْلَقًا اذكر قيودهم، ويا متحركًا قد عرفتَ هُمودَهم، خَلِّص نفسك

---

(١) أي: يستقبل يوم الصوم وهو بين أمثاله من أصحابه وإخوانه.

(٢) «قرة العيون المبصرة» (٢/٢٦١-٢٦٢).

من أسر الذنوب، وتأهّب فإنك مطلوب، وتذكر بقلبك يومَ تُقَلَّبُ القلوب، قبل أن يُمْسِكَ اللسان، ويتحيرَ الإنسان، ويزول العرفان، وتُنْشَرَ الأكفان، وتُزَارَ الحُفْرة، وتَطُولَ السَّفْرة، ويأتيَ منكر ونكير، ويقوى الشهيق والزفير، ويَبْقى العبد هناك أسيرًا، إلى أن يقوم عُرْيَانًا حسيرًا.

فحينئذٍ تنتثر الكواكب، وتنتشر المصائب، وتنسد المذاهب، وتتبيّن العجائب، وتسودّ الوجوه، ويفوت العاصي ما يرجوه، وتُنْقَل على الظهور الأوزار، ويؤخذ الكتاب باليمين أو باليسار، وليس لأحد هناك قرار، إلا الجنة أو النار».

وفي «المدهش»[1]: «كيف تطيب الدنيا لمن لا يأمن الموت ساعة، ولا يتم له سرور يوم؟! إذا كان عمرك في إدبار والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى!».

وله[2]: «يا نائمًا في قفار التسويف، أخطأت الطريق، صَبِيُّ غَفْلَتِك يقول: إذا شِبْتُ تُبْتُ، ولسان القواطع يناديه: «هيهات هيهات لما توعدون»، علامة الهلاك للمريض التسويف، قواعد آمالك مبنية على شَفا جُرُفٍ هار، عزيمتك للتوبة عزيمة بازي[3]، وعند عقد العهد تفر فِرار رَخَمَة[4]، تنقض عزيمة العزم بالتسويف كالتي نقضت غزلها، كلما ابيضّ الشَّيْبُ اسْوَدَّتِ الصحائف، كلما ضَعُفَتِ القوةُ قَوِي المرض، كلما قَصُر الأجل طال الأمل».

وله[5]: «إخواني، بادروا آجالكم، وحاذروا آمالكم، أما لكم عبرة فيمن مضى؟ أما لكم؟ ما هذا الغرور الذي قد أمالكم؟ ستَتركون على رغم آمالِكم ما لكم.

---

(١) (ص ٣١٣).

(٢) «روح الأرواح» (ص ١٠٣).

(٣) البازي والباز: ضرب من الصقور يُستخدم في الصيد.

(٤) طائر موصوف بالغدر. والمعنى: أنه كلما عزم على عَقْد عَهْدِ التوبة انهزم وغَدَر.

(٥) «المدهش» (ص ٢٨٥-٢٨٦).

إخواني، صَدّقْتم الأملَ فكذّبكم، وأطعتم الهوى فعذبكم، أما أنذركم السقم بعد الصحة، والترحة بعد الفرحة، في كل يوم يموت من أشباحكم ما يكفي في نعي أرواحكم، ويحل بعقوقكم[١] وفِنائكم ما يخبركم عن شتاتكم وفَنائكم، فخذوا حذركم قبل النوائب، فقد أُتيتم من كل جانب، وتذكروا سهر أهل النار في النار، واحذروا فوت دار الأبرار، وتخوفوا يوم الفصل بين الفريقين، أن يصيبكم من البَين البَين».

OOOOO

(١) أي: يحل بواديكم.

إهمال محاسبة النفس

ومنها: إهمال محاسبة النفس، فإن تركها دون محاسبة: لم فعلتِ كذا؟ ولم تركتِ كذا؟ ودون معاتبتها، ودون إيقافها عند حدها، ودون أمرها ونهيها، هو من أعظم أسباب وقوعها في المعاصي والاستمرار عليها، ونسيان التوبة، كما قيل:

وحسبُ امرئٍ شرًّا بإهمالِ نفسِهِ وإمكانها من كل شيءٍ أرادتِ

قال الغزالي[١]: «اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير، وأُمرتَ بتزكيتها وتقويمها وقَودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها، ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية.

فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولًا بوعظ نفسك.

وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها، وأنها أبدًا تتعزز بفطنتها وهدايتها، ويشتد أَنَفها واستنكافها إذا نُسبت إلى الحمق، فتقول لها: يا نفس، ما أعظم جهلك! تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقًا! أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار، وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب؟ فما لك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم؟! وعساك اليوم تُختطفين أو غدًا، فأراك ترَين الموت بعيدًا ويراه الله

(١) «الإحياء» (٤/٤١٦-٤٢٢)، مختصرًا.

قريبًا! أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن البعيد ما ليس بآت؟! أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة، وأنه لا يأتي في شيء دون شيء، ولا في شتاء دون صيف ولا في صيف دون شتاء، ولا في نهار دون ليل ولا في ليل دون نهار، ولا يأتي في الصِّبا دون الشباب ولا في الشباب دون الصِّبا، بل كل نفَس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة، فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة، ثم يفضي إلى الموت، فما لك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب، أما تتدبرين قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:١-٣]؟!

ويحك يا نفس! إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك! وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك! ويحك يا نفس! لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له؟ فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه؟! أفتظنين أنك تطيقين عذابه؟ هيهات هيهات! جربي نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس، أو في بيت الحمام، أو قربي أصبعك من النار، ليتبين قدر طاقتك.

أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك؟ فما لك لا تعوِّلين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك، فإذا قصدك عدو فلِم تستنبطين الحِيَل في دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى، وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم، فما لك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحِيَل؟! فلا تعوِّلين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز،

أو يسخِّر عبدًا من عبيده، فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب.

ويحك يا نفس! كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب، وتظنين أنك إذا مت انفلتِّ وتخلصت؟! فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك!

فإن كنت يا نفس قد آمنت به فما لك تسوِّفين العمل والموت لك بالمرصاد؟! ولعله يختطفك من غير مهلة، فبماذا أمِنت استعجال الأجل؟

وما الباعث لك على التسويف؟ هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة؟ أفتنتظرين يومًا يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات؟ هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه، فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره، ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس، وهذا محال وجوده.

أما تتأملين مذ كم تعِدِين نفسك وتقولين غدًا غدًا؟! فقد جاء الغد وصار يومًا، فكيف وجدته؟ أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يومًا كان له حكم الأمس؟! لا بل الذى تعجزين عنه اليوم فأنت غدًا عنه أعجز وأعجز.

ولعلك تقولين: ما يمنعني عن الاستقامة إلا حرصي على لذة الشهوات، وقلة صبري على الآلام والمشقات، فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك! إن كنتِ صادقة في ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد، ولا مطمع في ذلك إلا في الجنة.

وليت شعرى أَأَلم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم؟! فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله؟! ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي أو لحمق جلي.

أما الكفر الخفي فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب، وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب، وأما الحمق الجلي فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك، مع أنك لا تعتمدين

على كرمه في لقمة من الخبز، بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحِيَل.

ويحك يا نفس! لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا، ولا يغرنك بالله الغرور، فانظري لنفسك فما أمْرك بمهم لغيرك، ولا تضيعي أوقاتك فالأنفاس معدودة، فإذا مضى منك نفَس فقد ذهب بعضك، فاغتنمي الصحة قبل السقم، والفراغ قبل الشغل، والغنى قبل الفقر، والشباب قبل الهرم، والحياة قبل الموت.

واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها، يا نفس، أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته؟ فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب، ولا تتكلين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك، فإنه قادر على ذلك، أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردًا وأقصر مدة من زمهرير الشتاء؟! أم تظنين أن ذلك دون هذا؟! كلا أن يكون هذا كذلك، أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدة والبرودة، أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي؟ هيهات! كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات، وإنما كرم الله تعالى في أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه، لا في أن يندفع عنك العذاب دون حصنه، كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك، وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغني عنه خالقك ومولاك، وإنما تشترينه لنفسك إذ خلقه سببًا لاستراحتك، فطاعاتك ومجاهدتك أيضًا هو مستغن عنها، وإنما هي طريقك إلى نجاتك، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها، والله غني عن العالمين.

ويحك يا نفس! انزعي عن جهلك، وقيسي آخرتك بدنياك، ويحك يا نفس! ما أراك إلا ألِفْتِ الدنيا وأنِسْتِ بها فعسر عليك مفارقتها، وأنت مقبلة على مقاربتها، وتؤكدين في نفسك مودتها.

ويحك يا نفس! أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة، وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدرى.

يا نفس، ما أعجب أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك! عجبًا لك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجليلة!

ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها، أوَما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك، فاحسبي أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك؟! وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك، كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك، فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي؟!

فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك، فما لك لا تتركينها ترفعًا عن خسة شركائها، وتنزهًا عن كثرة عَنائها، وتوقيًا من سرعة فنائها؟

فبادري ويحك يا نفس، فقد أشرفتِ على الهلاك، واقترب الموت، وورد النذير، فمن ذا يصلي عنك بعد الموت، ومن ذا يصوم عنك بعد الموت، ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت؟!

ويحك يا نفس، مالك إلا أيام معدودة، هي بضاعتك إن اتجرت فيها، وقد ضيعت أكثرها، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك، فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك؟!

أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك، والقبر بيتك، والتراب فراشك، والدود أنيسك، والفزع الأكبر بين يديك؟!

أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك؟! أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يومًا ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم؟! وأنت في أمنيتهم، ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه، وأنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة!

ويحك يا نفس! أما تستحيين تزينين ظاهرك للخلق، وتبارزين الله في السر بالعظائم؟! أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق؟! ويحك! أهو أهون الناظرين عليك؟! أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل؟! تَدعين إلى الله وأنت عنه فارة! وتُذكِّرين بالله وأنت له ناسية!

ويحك يا نفس! أتشتغلين مع هذه الخطايا بعِمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها؟! أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا؟! جمعوا كثيرًا وبنَوا مشيدًا وأمّلوا بعيدًا، فأصبح جمعهم بورًا وبنيانهم قبورًا وأملهم غرورًا، ويحك يا نفس! أما لك بهم عبرة؟! أما لك إليهم نظرة؟! أتظنين أنهم دُعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين؟! هيهات هيهات! ساء ما تتوهمين!

والعَجَب كل العَجَب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة! ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك، ولا تحزنين بنقصان عمرك! وما نفع مال يزيد وعمر ينقص؟!

ويحك يا نفس! تعرضين عن الآخرة وهى مقبلة عليك! وتقبلين على الدنيا وهى معرضة عنك! فكم من مستقبل يومًا لا يستكمله! وكم من مؤمِّل لغد لا يبلغه!

فاحذري أيتها النفس المسكينة يومًا آلى الله فيه على نفسه، أن لا يترك عبدًا أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله، سره وعلانيته، فانظري يا نفس بأي بدن تقفين بين يدي الله! وبأي لسان تجيبين! وأعدي للسؤال جوابًا، وللجواب صوابًا، واعملي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال، وفي دار زوال لدار

مقامة، وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود، اعملي قبل أن لا تعملي، اخرجي من الدنيا اختيارًا خروج الأحرار، قبل أن تخرجي منها على الاضطرار.

فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة، واقبلي هذه النصيحة، فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار، وما أراك بها راضية، ولا لهذه الموعظة واعية.

فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام، فإن لم تزل فالمواظبة على الصيام، فإن لم تزل فبقلة المخالطة والكلام، فإن لم تزل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام، فإن لم تزل فاعلمي أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه، فوطّني نفسك على النار، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلًا وخلق النار وخلق لها أهلًا، فكل ميسر لما خلق له.

فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك! والقنوط كبيرة من الكبائر، نعوذ بالله من ذلك، فلا سبيل لك إلى القنوط، ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك، فإن ذلك اغترار وليس برجاء.

فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليتِ بها؟! وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك؟! فإن سمحت فمُسْتَقَى الدمع من بحر الرحمة، فقد بقي فيك موضع للرجاء، فواظبي على النياحة والبكاء، واستعيني بأرحم الراحمين، واشتكي إلى أكرم الأكرمين، وأدمني الاستغاثة، ولا تملي طول الشكاية، لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك، فإن مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تفاقمت، وتماديك قد طال، وقد انقطعت منك الحِيَل، وراحت عنك العلل، فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجا إلا إلى مولاك، فافزعي إليه بالتضرع، واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك، لأنه يرحم المتضرع الذليل، ويغيث الطالب المتلهف، ويجيب دعوة

المضطر، وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة، وإلى رحمته محتاجة، وقد ضاقت بك السبل، وانسدت عليك الطرق، وانقطعت منك الحِيَل، ولم تنجح فيك العظات، ولم يكسرك التوبيخ، فالمطلوب منه كريم، والمسؤول جواد، والمستغاث به بَرٌّ رؤوف، والرحمة واسعة، والكرم فائض، والعفو شامل».

وكتب إلى أبي الفتح بن سلامة قائلًا[1]: «قَرَعَ سمعي بأنك تلتمس مني كلامًا وجيزًا في معرِض النصح والوعظ، وإني لست أرى نفسي أهلًا له، فإن الوعظ زكاةٌ نصابها الاتعاظ، فمن لا نصاب له كيف يُخرج الزكاة؟! وفاقد النور كيف يستنير به غيره؟! ومتى يستقيم الظل والعود أعوج؟!».

وذكر له الواعظَين: القرآن والموت، ثم قال: «وفيهما كفاية لكل متعظ، ومن لم يتعظ بهما كيف يعظ غيره؟! ولقد وعظت نفسي بهما وقَبِلَتْ وصَدَّقَتْ قولًا وعملًا، وأبتْ وتمردت تحقيقًا وفعلًا، فقلت لنفسي: أمَا أنتِ مصدقة بأن القرآن هو الواعظ الناطق، وأنه الناصح الصادق، وأنه كلام الله المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟! فقالت: بلى. فقلت لها: قد قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود:١٥-١٦].

فقد وعدك الله بالنار على إرادة الدنيا، وكل ما لا يصحبك بعد الموت فهو من الدنيا، فهل تنزهتِ عن حب الدنيا وإرادتها؟! ولو أن طبيبًا نصرانيًّا وعدك بالموت أو بالمرض على تناول ألذ الشهوات لتحاميتِها واتقيتِها، أفكان النصراني عندك أصدق من الله تعالى؟! فإن كان كذلك فما أكفرك! أو كان المرض أشد عندك من النار؟! فإن كان كذلك فما أجهلك! فصدَّقَتْ ثم ما انتفعتْ، بل

(١) انظر «الرسالة الوعظية» ضمن «مجموعة رسائل الغزالي» (ص ٣١٦-٣١٨)، و«الاستعداد للموت» للمَلِيباري (ص ١١-١٤).

أصرت على الميل إلى العاجلة واستمرتْ.

ثم أقبلتُ عليها فوعظتها بالواعظ الصامت، فقلت لها: قد أخبر الناطق عن الصامت، إذ قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة:٨].

وقلت لها: هَبي أنك مِلْتِ إلى العاجلة! أفلستِ مصدقة بأن الموت لا محالة آتيك، وقاطعٌ عليك ما أنت متمسكة به، وسالبٌ منك كل ما أنت راغبة فيه، وأن كل ما هو آت قريب، وأن البعيد ما ليس بآت، وقد قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧].

فكأنك مخرجة بهذا الوعظ عن جميع ما أنت فيه! قالت: صدقت. فكان منها قولًا لا تحصيل وراءه، إذ لم تجتهد قط في التزود للآخرة كاجتهادها في تدبير العاجلة، ولم تجتهد قط في رضا الله تعالى كاجتهادها في طلب رضاها وطلب رضا الخلق، ولم تستح قط من الله تعالى كما تستحي من واحد من الخلق، ولم تشمر للاستعداد للآخرة كتشميرها في الصيف لأجل الشتاء، وفي الشتاء لأجل الصيف، فإنها لا تطمئن في أوائل الشتاء ما لم تفرغ من جميع ما تحتاج إليه من آلاته، مع أن الموت ربما يختطفها! والشتاء لا يدركها! والآخرة عندها يقين، فلا تتصور أن تُختطف منها! فقلت لها: ألا تستعدين للصيف بمقدار طوله، وتصنعين آلة الصيف بقدر صبرك على الحر؟! قالت: نعم. قلت: فاعصي الله بقدر صبرك على النار! واستعدي للآخرة بقدر بقائك فيها! فقالت: هذا هو الواجب الذي لا يرخِّص في تركه إلا الأحمق. ثم استمرت على سجيتها! ووجدتني كما قال بعض الحكماء: في الناس من يموت نصفه ثم لا ينزجر نصفه الآخر. وما أراني إلا منهم.

ولما رأيتها متمادية في الطغيان، غير منتفعة بواعظ الموت والقرآن، رأيت

أهم الأمور التفتيش عن سبب تماديها مع اعترافها وتصديقها، فإن ذلك من العجائب العظيمة! فطال تفتيشي عنه حتى وقفت على سببه، وها أنا موصٍ نفسي وإياكَ بالحذر منه، فهو الداء العضال، وهو السبب الداعي إلى الغرور والإهمال، وهو اعتقاد تراخي الموت واستبعاد هجومه على القرب، فإنه لو أخبره صادق في بياض نهاره أنه يموت في ليلته أو يموت إلى أسبوع أو شهر لاستقام على الصراط المستقيم، ولترك جميع ما هو فيه مما يظن أنه يتعاطاه لله تعالى وهو فيه مغرور، فضلًا عما ليس لله تعالى!

فانكشف لي تحقيقًا أن من أصبح وهو يؤمِّل أنه يمسي، أو أمسى وهو يؤمِّل أنه يصبح، لم يَخْلُ من الفتور والتسويف، ولم يقدر إلا على سير ضعيف، فأوصيه ونفسي بما أوصى به رسول الله ﷺ حيث قال: «صَلِّ صَلَاةَ مُودِّعٍ»[1].

ولقد أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب، ولا يُنتفع بوعظ إلا به، ومن غلب على ظنه في كل صلاة أنها آخر صلاته حضر معه خوفه من الله تعالى وخشيته منه، وتيسر له الاستعداد بعد الصلاة، ومن لم يخطر بخاطره قِصَرُ عمره، وقرب أجله، وغفل قلبه عن صلاته، فلا يزال في غفلة دائمة، وفتور مستمر، وتسويف متتابع، إلى أن يدركه الموت، وتهلكه حسرة الفوت.

وأنا مقترح عليه أن يسأل الله تعالى أن يرزقني هذه الرتبة، فإني طالب لها وقاصر عنها، وأوصيه أن لا يرضى من نفسه إلا بها، وأن يحذر مواقع الغرور فيها، فإذا وعَدَتْ النفس بذلك طالبها بمَوثقٍ غليظ من الله تعالى، فإن خداع النفس لا يقف عليه إلا الأكياس، وقليل ما هم.

والوصايا وإن كانت كثيرة، والمذكورات[2] وإن كانت كبيرة، فوصية الله

---

(١) بعض حديث، أخرجه ابن ماجه (٤١٧١) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) كذا هي في المطبوع، ووجهها ظاهر، لكن لعلها: «والمُذَكِّرات»!

أكملها وأنفعها وأجمعها، وقد قال الله عز وجل في محكم القرآن: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١].

فما أسعد من قبل وصية الله تعالى! وعمل بها، وادخرها لنفسه، ليجدها يوم مردها ومنقلبها».

○○○○○

ضعف العلم واليقين

والوقوف على كل ما تقدم يرجع إلى العلم، قال الله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ [محمد:١٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

فهم الذين عرفوا جلاله وعظمته وحقه، فمن أولى منهم بخشيته؟! ومن أولى منهم بطاعته واجتناب معصيته؟!

وإنما يُؤْتى الإنسان من قِبَل جهله وقلة علمه وضعف يقينه، أو غياب القلب عنه وغفلته عنه، العلم بالله وأسمائه وصفاته، وما يستحق من الإجلال والتعظيم والطاعة والعبادة، والعلم بالآخرة، والعلم بلقاء الله سبحانه، والعلم بأمره ونهيه ولا بد، وإلا كيف يطاع كما أمر؟! وكيف يُتقى بإتيان محابه ومراضيه، واجتناب مباغضه ومساخطه؟!

ولو رسخ هذا العلم في قلبه وصار يقينًا لما عصى الله تعالى أصلًا، إلا أن يشاء الله، كما قال سبحانه: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر:٥].

قال ابن جرير: «لو تعلمون أيها الناس علمًا يقينًا، أن الله باعثكم يوم القيامة من بعد مماتكم من قبوركم، ما ألهاكم التكاثر عن طاعة الله ربكم، ولسارعتم إلى عبادته، والانتهاء إلى أمره ونهيه، ورفض الدنيا إشفاقًا على أنفسكم من عقوبته». اهـ.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»[١].

قال الحافظ: «والمراد بالعلم هنا ما يتعلق بعظمة الله وانتقامه ممن يعصيه،

---

(١) أخرجه البخاري وغيره.

والأهوال التي تقع عند النزع والموت وفي القبر ويوم القيامة، ومناسبة كثرة البكاء وقلة الضحك في هذا المقام واضحة، والمراد به التخويف». اهـ.

هذا، وما أجبنا به على السؤال يشمل المعاصي الظاهرة، كما هو واضح بيّن، ويشمل المعاصي الباطنة، كالحسد والكبر والحقد وحب الرياسة وغيرها، وإن كنا نعلم أن الثانية لا تكاد تخطر ببال أكثر الناس.

إذًا فالعلم الذي نعني يشمل العلم بالعبادات الظاهرة والعبادات الباطنة ومتعلقاتها، ويشمل العلم بالمعاصي الظاهرة والمعاصي الباطنة ومتعلقاتها، فليُتنبه!

قال شيخ الإسلام(١): «العلم الأصلي هو العلم الذي بُعِث به الرسل وأُنزل به الكتب، وهو علم الإيمان، وعلم أحوال القلوب، وما تزكو به، من الخشية والإنابة والتوكل والرضا والصبر واليقين والمحبة، والزهد في الدنيا وطلب الآخرة، والحب في الله والبغض في الله، ومحبة الله وكتابه ورسوله، والنصيحة لله ولكتابه ولرسوله وللمؤمنين، والإخلاص والصدق والشكر لله دائمًا، وعلم شروط الأعمال وما يصححها ويفسدها مما يتعلق بالقلوب، من الرياء والعُجب والغفلة عن معانيها، وغير ذلك مما هو مبسوط في غير هذا الموضع.

ومن ذلك: معرفة النفس وشرورها ودسائسها، من الشِّرَة والحرص والحسد والغضب والكبر والبخل، وحب الدنيا وحب التعظيم وحب الرياسة، ومعرفة الشيطان وكيده ومداخل غروره، ومعرفة موازين الأعمال، وما الذي ينبغي أن يبدأ به، وأيها الذي يرجح على صاحبه عند الله محبة ومنزلة، ومراعاة موقع نظر الرب وإهمال موقع نظر الخلق، ومعرفة حقوق الخلق، مثل الوالدين وذوي الأرحام، والأئمة من أهل العدل والإنصاف، والعلماء العاملين، والصلحاء المقتدين، والمشايخ المهتدين، والجيران، وعامة المؤمنين، وما الذي يجب لكل منهم من الحق، ومعرفة الأمر بالمعروف والنهي

---

(١) ضِمْنَ فصل في آخر رسالة مطبوعة معنونة باسم: «فضائل الأئمة الأربعة».

عن المنكر، وكيفيته وصفته، إلى غير ذلك مما قد ذكر في غير هذا الموضع.

فهذا هو العلم المطلوب من الخلق معرفته، وهو أصل التوحيد الذي ما أنزل الله كتابًا ولا أرسل رسولًا إلا به، ودعوة الرسل كلهم إليه، وسائر العلوم وسيلة إليه.

وبعد ذلك معرفة أحكام الشريعة وأمور الدين، وبعد هذا كله علم الفروع المعروف عن الرسول وعن أصحابه، الأهم منه فالأهم». اهـ.

وقال المقدسي[1]: «أما علم أحوال القلب، كالخوف والرجاء والرضا والصدق والإخلاص وغير ذلك، فهذا العلم ارتفع به كبار العلماء، وبتحقيقه اشتهرت أذكارهم، كسفيان وأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد.

وإنما انحطت رتبة المُسَمَّين بالفقهاء والعلماء عن تلك المقامات، لتشاغلهم بصورة العلم من غير أخذ على النفس أن تبلغ إلى حقائقه وتعمل بخفاياه[2]». اهـ.

وأنصح في هذا الباب بكتيّب! «فضل علم السلف» لابن رجب، فإنه كتاب نافع فريد في بابه، فاحرص يا باغي الخير على مطالعته، والعمل بما فيه، والتمسك بما يمليه.

اللـهم إنا نسأل علمًا نافعًا، ونعوذ بك من علم لا ينفع[3].

قال المقدسي[4]: «فإن قيل: ما بال الإنسان يقع في الذنب مع علمه بقبح عواقبه؟! فعن ذلك أجوبة:

منها: أن العقاب الموعود ليس بحاضر.

---

(١) انظر «مختصر منهاج القاصدين» (ص ١٨).

(٢) يعني: تحصيل أحوال القلب، من خوف ورجاء وغيرها، كما تقدم.

(٣) كما في الحديث: عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سَلُوا اللَّهَ عِلْمًا نَافِعًا، وَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ». أخرجه ابن ماجه (٣٨٤٣) وغيره، وهو في «السلسلة الصحيحة» (١٥١١).

(٤) انظر «مختصر منهاج القاصدين» (ص ٢٦٦-٢٦٧).

ومنها: أن المؤمن إذا أذنب لابد أن يعزم على التوبة، وقد وُعِد أن التوبة تجبر ما فعل، وطول الأمل غالب على الطباع، فلا يزال يسوف بالتوبة، فلما رجا التوبة أقبل على الذنب.

ومنها: أنه يرجو عفو الله عنه.

وعلاج هذه الأسباب: أن يفكر في نفسه أن كل ما هو آتٍ قريب، والمُسَوِّف يبني الأمر على ما ليس إليه، وهو البقاء، فلعله لا يبقى، وإن بقي فربما لم يقدر على الترك غدًا كما يقدر عليه اليوم، وهل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة، وهى غير مفارقة له غدًا؟! بل تتأكد بالاعتياد، ومن هذا هلك المُسَوِّفون، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين، وما مثال المُسَوِّف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة، فرآها قوية لا تنقطع إلا بمشقة شديدة، فقال: أُؤَخرها سنة ثم أعود إليها، وهو لا يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فالعجب من عجزه مع قوته عن مقاومتها في حال ضعفها، كيف ينتظر الغلبة إذا ضَعُفَ وقَوِيَتْ؟!

وأما انتظار عفو الله تعالى، فعفو الله سبحانه ممكن، إلا أن الإنسان ينبغي له الأخذ بالحزم، وما مثال ذلك إلا كمثل رجل أنفق أمواله كلها، وترك نفسه وعياله فقراء ينتظر من الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في خربة، وهذا ممكن إلا أن صاحبه ملقب بالأحمق». اهـ.

وفي «الإحياء»[(١)]: قال يحي بن معاذ: من أعظم الاغترار عندي: التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببَذْر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله عز وجل مع الإفراط.

ترجو النجاة ولم تَسلك مسالكَها ... إن السفينة لا تجري على اليَبَسِ

(١) (١٤٤/٤).

ومن مواعظ ابن السماك[1]: «همة العاقل في النجاة والهرب، وهمة الأحمق في اللهو والطرب، عجبًا لعين تلذ بالرقاد، وملك الموت معها على الوساد، أفلا منتبه من نومته، أو مستيقظ من غفلته، ومفيق من سكرته، وخائف من صرعته؟! أما تجعل للآخرة منك حظًّا؟! أقسم بالله، لو رأيت القيامة تخفق بأهوالها، والنار مشرفة على آلها، وقد وضع الكتاب، وجيء بالنبيين والشهداء، لسرك أن يكون لك في ذلك الجمع منزلة.

أَبَعْدَ الدنيا دار مُعتمَل؟! أم إلى غير الآخرة مُنتقَل؟! هيهات! ولكن صمَّت الآذان عن المواعظ، وذهلت القلوب عن المنافع، فلا الواعظ ينتفع، ولا السامع ينتفع».

ومنها: «ألا متأهب فيما يوصف أمامه؟! ألا مستعد ليوم فقره؟! ألا مبادر فناء أجله؟! ما ينتظر من ابيضت شعرته بعد سوادها، وتكرش وجهه بعد انبساطه، وتقوس ظهره بعد انتصابه، وكَلّ بصره، وضعف ركنه، وقل نومه، وبَلِيَ منه شيء بعد شيء في حياته؟! فرحم الله امرأً عقَل الأمر، وأحسن النظر، واغتنم أيامه». اهـ

ولابن الجوزي[2]: «كيف تصنع إذا نُودِيَ بالرحيل وما تأهبت؟!!».

❑❑❑❑❑

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/٣٣٠).

(٢) «التبصرة» (١/٣٧).

خاتمة

وأخيرًا، أخي القارئ، فلا يقال: لِمَ لَمْ تستطرد في ذكر الأسباب المعِينة على ترك المعاصي، فالجواب أن يقال: إن كلامنا هنا ليس عامًّا في ذلك، إنما هو جواب واقع على سؤال خاصّ، وهو ما ذُكِر في المقدمة: لماذا لا أزال أقع في المعاصي رغم ما عندي من عبادات، من صلاة وصوم وتلاوة وذكر وغيرها؟! يعني: بمعنى آخر: لماذا لم تمنعي طاعاتي وعباداتي عن المعاصي، ولم تصرفني عنها، ولم تُقَوِّني على اجتنابها؟! هذا هو السؤال!

ولَأَنْ تُجْمِع هِمّتَك في الجواب على السؤال بكلام قليل وتبقى في دائرة ما يريده السائل، وتشير إلى ما هو خارجها إذا اضْطُرِرْتَ، خير من أن تكثر الكلام وتذهب بعيدًا عن مطلبه، فتشتت ذهنه وتُوقِعه في الحَيْرة، وتجبرَه أن يعود فيكرر سؤاله، لأنك لم توقِفه على جوابه!

وقد كنا قديمًا نقول لبعض أصدقائنا وقد عنون لخطبة جمعة مثلًا أو مجلس وعظ باسم موضوع معين، ثم أطال الكلام، ولم يلج في الموضوع المقصود، كنا نمازحه ونقول له: أنت تتكلم على جميع المحاور[١]! وقد وقفتَ على باب الموضوع الذي عنونتَ له ولم تَلِجْه، وبقِيتَ تحوم حوله، ولم تتكلم فيه إلا بضع كلمات.

والمقصود بعد إبداء العذر في سبب الاقتصار على ما ذكرنا: تنبيه الكاتب والواعظ وغيرهما على التركيز على الموضوع الذي اختار الكلام عليه.

ثم أقول: عليك ـ أخي السائل ـ بصحبة الصالحين، ومرافقة المتقين، ومجالسة المجتهدين، وإياك وصحبة الفاسقين والفاسدين والبطّالين، وإياك ومجالستهم، فإن

---

(١) المقصود: إلا محور الموضوع الأصلي.

هذا من أكبر العون على ترك المعاصي.

وإياك والعزلة والانزواء على نفسك، خصوصًا في هذا الزمان(١)، فأحيانًا تكون الخلوة والوحدة من أعظم أسباب الوقوع في المعصية، و«إِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ مِنَ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةَ»، وبالمقابل قد تكون المخالطة هي السبب.

فانتبه لنفسك، وكن طبيبًا لها، وانظر: هل خلوتك من الأسباب؟! وهي التي تتيح لك المعصية، كأن يسهل عليك في الخولة إذا دخلت إلى الشبكة (النت) أن تنجرّ إلى مخالطة أو مشاهدة ما لا يحل لك، مثلًا، فتصير الخلوة شؤمًا عليك، هل هذا من الأسباب؟! أو هل غيره منها؟! أو هل السبب عكس ذلك؟! كمخالطة صديق عنده معصية كذا، فإذا خرجت من بيتك وصاحبته رغبت في تلك المعصية، ولم تكن لتقع فيها لولا خروجك معه!

فانظر لنفسك! فأنت أدرى بها، وأعلم بثغورها التي يدخل عليك الشيطان منها، فاعمل على ترقيعها! بل إغلاقها بالكلية.

وفي أخِلّاء التقوى وضدِّهم قال الله عز وجل: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۞ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۞ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

واعلم أن المرء على دين خليله، وخُلُقه من خُلُق قرينه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

(١) لأن العزلة أصبحت الآن من أسوأ أنواع الخلطة!! إذ أن الصاحب فيها هو الهاتف! وما أكثر ما فيه من خلطاء السوء لمن ابتغاهم!

«الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»[١].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ»[٢].

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ[٣]، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»[٤].

قال المناوي[٥]: «قال الراغب: نبه بهذا الحديث على أن حق الإنسان أن يتحرى بغاية جهده مصاحبة الأخيار ومجالستهم، فهي قد تجعل الشرير خيرًا، كما أن صحبة الأشرار قد تجعل الخير شريرًا.

ومن المشاهد أن الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة، فما الظن بالنفوس البشرية التي موضعها لقبول صور الأشياء خيرها وشرها؟!».

وتعاون معهم على البر والتقوى، واقبل نصحهم، وإن وجدت فيه نوع شدة أو قسوة أحيانًا!

قال شيخ الإسلام[٦]: «إن المؤمن للمؤمن كاليدين، تغسل إحداهما الأخرى، وقد لا ينقلع الوسخ إلا بنوع من الخشونة، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٣٢) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) أي: يهبك ويعطيك.

(٤) متفق عليه.

(٥) انظر «فيض القدير» (٥/٥٠٧).

(٦) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٥٣-٥٤).

ما نحمد معه ذلك التخشين».

وفي الختام، أخي السائل، إياك واليأس من قدرتك على ترك المعاصي، فإن الأمر سهل يسير على من يسره الله له، فاستعن به عز وجل، وتوكل عليه، وأخلص اللجوء إليه، وابذل جهدك في ذلك، فإنك إذا استعنته في هذه الحال أعانك، وإذا سألته أجابك.

قال سبحانه: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل:٦٢].

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦].

واعلم أنه لا يأس ولا قنوط من رحمة أرحم الراحمين:

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣].

والزم الطاعة والعبادة، ولا تتركها ولا تَنْقُصها، «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»(١).

وأكثر من الاستغفار في الليل والنهار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، فيما يحكي عن ربه عز وجل، قال:

«أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ،

---

(١) بعض حديث، أخرجه الترمذي (١٩٨٧) وغيره، وحسنه الألباني.

اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»[١].

قال ابن رجب[٢]: «يعني: ما دام على هذه الحال؛ كلما أذنب ذنبًا استغفر منه».

وقال القرطبي[٣]: «والحديث يدل على عظيم فائدة الاستغفار، وعلى عظيم فضل الله وسعة رحمته وحلمه وكرمه، ولا شك في أن هذا الاستغفار ليس هو الذي ينطق به اللسان، بل الذي يَثْبُت معناه في الجَنان، فيَحِل به عَقْد الإصرار، ويندم معه على ما سلف من الأوزار، فإذًا الاستغفار ترجمة التوبة وعبارة عنها». اهـ.

وقيل للحسن: ألا يستحيي أحدنا من ربه يستغفر من ذنوبه، ثم يعود، ثم يستغفر، ثم يعود؟! فقال: وَدَّ الشيطان لو ظَفِر منكم بهذه! فلا تَمَلوا الاستغفار[٤]. اهـ.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ، لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. فَقَالَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»[٥].

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[٦].

---

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٤١٣/١).

(٣) «المفهم» (١٢٦/٢٢).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (٤١٥/١).

(٥) أخرجه الحاكم (٧٦٧٢) وغيره. وهو في «الصحيحة» (١٠٤).

(٦) أخرجه مسلم (٢٧٥٩) وغيره.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا بْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»(٢).

وفي الحديث القدسي العظيم الشهير: عن سعيد بن عبد العزيز، عن ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخَوْلاني، عن أبي ذر، عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

«يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا». الحديث(٣). وفيه:

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ».

وأَدِمِ النظرَ فيما قدمنا وتدبرْه، وأوْلِ اهتمامَك آياتِ وأحاديث الترغيب والترهيب، فانظر أحد المؤلفات في ذلك(٤)، وأيقِنْ أن الأمر ضمن الطاقة، بل

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم (٤٢٥٧) وغيره.

(٤) وأجلها كتاب «الترغيب والترهيب» للمنذري، بل «صحيحه» للألباني، واستفد من شرحه لعَمَارة، خصوصًا للاطلاع على الآيات المُوْرَدة على أبواب الكتاب.

ودونها بكثير، و﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦].

واصدُقْ فيما تسعى إليه من ترك المعاصي، وانظر إلى نفسك أو إلى غيرك كيف يفعل حين يطلب شيئًا مما يحب من متاع الدنيا وزينتها؟! وليكن حلالًا طيبًا! وكيف يبذل الغالي والرخيص في طلبه! وكيف يحتال للوصول إليه بشتى الطرق! وكيف يستنفد وسعَه، ويبذل طاقته، في تحقيق مبتغاه!!

وإنما الحامل له على هذا هو صدق طلبه ورغبته في مطلوبه ومحبته له، هذا وهو إنما يطلب منافع دنيوية زائلة! فكيف لو كان يطلب طاعة الله واجتناب معصيته، مما يبقى نفعُه، ويُدّخر أجرُه، ويعود على صاحبه بسعادة الدنيا والآخرة، والفوز برضا الله تعالى، والقرب منه، والزلفى لديه، في نعيم لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع؟! فما هو والله إلا صدق طلبك، ومحبتك لمطلوبك، وقد تحقق لك مرادك!

فابذل فيه جهدك ولا تكسل، ثم أبشر بالهداية والفلاح، والنصر والنجاح: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩].

وبالله التوفيق، وصلِّ اللـهم وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك محمد، النبي الأمي، وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.

كتب

محمد شومان الرملي

محرم / ١٤٤٤هـ

الفهرس

الفهرس

تم بحمد الله